دكتور : قاسم عبده قاسم

رؤية إسرائيلية للحروب الصليبية



دكتور: قاسم عبده قاسم

رؤية إسرائيلية للحروب الصليبية

حروب معين التاريخ لأهل التارِ



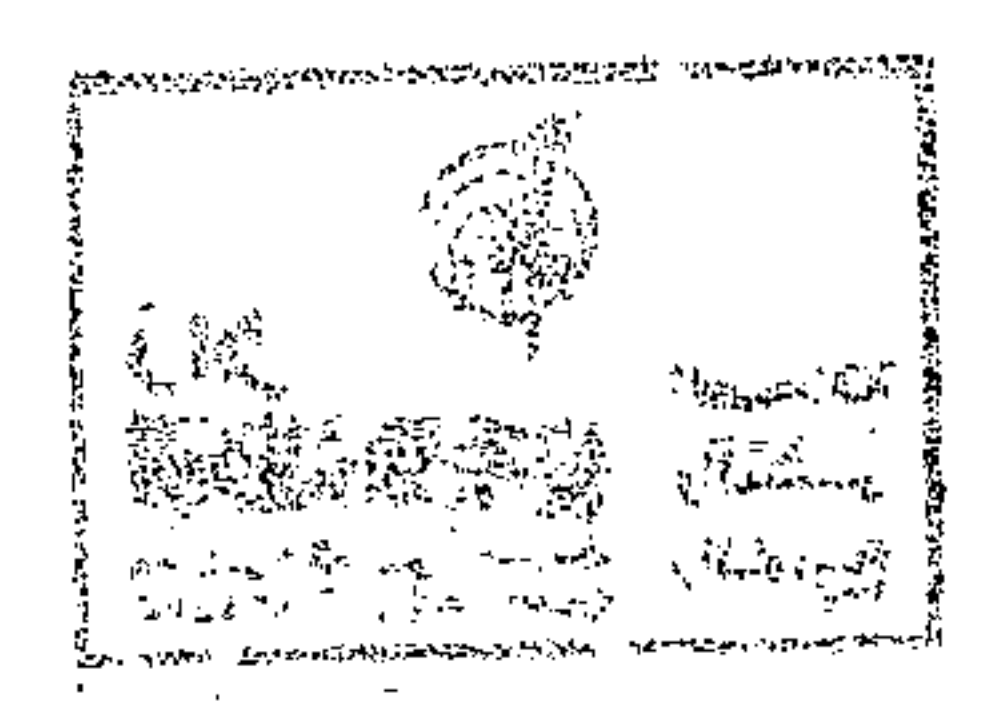
دكتور قاسم عبده قاسم

رؤية اسرائيلية للحروب الصليبية

القاهرة ١٩٨٣م



جزء
معين التاريخ لأهل النار



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

للتاريخ وظيفة حضارية ، لأنه العلم الذى يلهث وراء الانسان من عصر الى آخر محاولا أن يفهم الانسان وأن يفهمه حقيقة وجوده من خلال بحث ماضيه • وقد مضى ذلك الزمان الذى كان فيه التاريخ حلية ثقافية تزدان بها الرؤوس الفارغة أو أحاديث سمر نتداولها فى المجالس والنوادى • فالحاضر هو الابن الشرعى للماضى • ومن يحاول أن يفهم مشكلات الحاضر دون البحث عن جذورها فى الماضى انما يحرث فى البحر •

والحركة الصهيونية قد فهمت الدعاية على أنها حقيقة وعناق حضــارى ، مما ترتب عليــه أن اهتم مخططو الدعاية الصهيونية بالنواحى الأدبيــة والتاريخية • فالأدب هو الوســيلة التى تخلق الشحنة العاطفية ، والفن من أهم قنوات صياغة المواقف والوجدان من خلال الاعجاب بالجوانب الجمالية • كذلك فان التاريخ لغة قوية لا تنحصر فى محاولة بث الاعجاب ومداعبة مشاعر الزهو القومى ، وانما هو أيضا مخزن للتجارب الانسانية التى يمكن أن تنير الحاضر وتهدى الى سبيل المستقبل • فكتابة التاريخ هى نقطة التقاء بين الماضى والحاضر ، وبما أن الحاضر يتغير على الدوام ، فان نقطة الالتقاء هذه فى حركة مستمرة ، ومن خلال هذه النقطة ، أى كتابة التاريخ ، يستطيع المؤرخ أن يتسلل الى العقل الفردى والجماعى بتقديم النماذج التاريخية والمواقف التى تخدم أهدافه •

والدراسة التى نقدمها فى هذه الصفحات يمكن أن تكشف عن نمــوذج تطبيقى لاســتخدام الحركة الصهيونية للتاريخ والنمــاذج التاريخية لتحقيق أهدافها • واذا كانت هذه الدراســة قد جاءت

متواضعة من حيث حجمها ومجالها ، فاننا نعتقد أنها جهد أولى وبداية أرجو أن تتاح لى فرصة متابعتها ان شاء الله •

وأخيرا فاننى أتوجه بهذه الدراسة الى المواطن العربى ، سواء كان من المتخصصين أو عامة المثقفين راجيا من الله أن تكون ذات فائدة ما ، والله الموفق والمستعان •

دكتور/ قاسم عبده قاسم

الهرم فى ٩/١١/١٩٨٢م

الفصل الأول

الحركة الصليبية : ماهيتها وتطورها

الخلفية الايديولوجية للحروب الصليبية ــ العوامل والأسباب ــ الحملة الشعبية ومغزاها ــ أهداف الحركة الصليبية ــ المواجهــة العربية الصليبية ونتائجها ــ نهاية الوجود الصليبي فى الشرق •

كانت « الحروب الصليبية » التى شنها الغرب الكاثوليكى على الشرق العربى الاسلامى حربا مثــل أية حرب أخــرى ؛ من حيث العدوان واراقة الدماء ومن حيث تذرعها بذريعة أخلاقية تبرر بها نفسها • وهو أمر لا نستغربه فى دراستنا لأية حرب ، ولكنه يبدو غريبا بالفعل عند دراستنا للحركة الصليبية • فقد قامت تحت راية الصليب رمز الديانة المسيحية التى تظهر قدرا كبيرا من المسالمة فى كتبها المقدسة • اذ كان الهدف المعلن للحروب الصليبية هو تحرير القدس التى شهدت آلام المسيح وعذابه ، والتى فيها قبره ، من أيدى المسلمين ، وهو ما يعنى أن هذه الحرب ، من الناحية الرسمية المعلنة ، كانت « حربا مسيحية مقدسة » • فكيف حدث أن تكونت خلفية ايديولوجية جعلت الحرب مقبولة أخلاقيا ؟ وما هى العوامل والأسباب التى أدت الى بروز الحركة الصليبية على أرض الواقع ؟ •

فى تتبعنا للخلفية الايديولوجية للحركة الصليبية نجد أمامنا تيارات رئيسية ثلاثا تصب فى مصب واحد برزت من طياتة فكرة الحملة الصليبية • والتيار الأول يأتى من داخل الديانة المسيحية

نفسها متمثلا فى التطورات الفكرية والممارسات الدينية التى تبلورت فى القرن الحادى عشر في عامل من أهم عوامل رسوخ الفكــرة الصليبية • هذا التيار المسيحى يتجمع من رافدين أساسيين هما : الحج ، وفكرة الحرب المقدسة • أما التيار الثانى فينشأ عن التفاعلات الاجتماعية/المفكرية الناجمة عن استقرار القبــائل الجرمانية فوق التراب الأوربى ، وما نتج عن ذلك بالضرورة من صياغة المثــل والقيــم الجرمانية عن البطولة والشجاعة الحربية فى مصطلحات مسيحية ، ثم محاولات الكنيسة للسيطرة على الحروب الاقطاعية التى مزقت الغرب اللأتينى من خلال حركة « هدنة الرب » و « سلام الرب » • ويأتي التيار الثالث انعكاسا للتأثير الاسلامى على الغرب الأوربى فى تلك الآونة ؛ سواء من خلال اقتباس فكــرة الجهــاد الاسلامية أو من خلال ما تعلمه الغــرب من حرب الاسترداد ضد مسلمى الأندلس •

بيد أن الفكــرة ، فى حد ذاتهــا ، لم تكن تسبب الظاهرة التاريخية التى نحن بصددها : أعنى الحركة الصليبية ، ما لم تكن متوافقة مع الظروف التاريخية ، وما لم تكن استجابة لحركة المجتمع فى الغرب اللاتينى • وفى تصورنا أن فكرة الحملة الصليبية ، أو الحرب المقدسة فى الشرق ، قد جاءت فى ظروف ملائمة تماما ؛ فى الغرب المسيحى ، والشرق البيزنطى ، والشرق العربى الاسلامى على السواء •

فقد شهد القرن العاشر فى أوربا حركة اصلاح كنسية بزعامة الأديرة الكلونية ، ثم تطورت هذه الحركة الى حركة احياء كبرى تستهدف اصلاح الأديرة والكنيسة ، واصلاح العالم (١) فى أواسط

---

(١) تطورت الحركة الاصلاحية فى القرن الحادى عشر تطورا كبيرا ، ففى منتصف القرن الحادى عشر بدأت فتــرة من أخطــر فترات التاريخ الاوربى ، اذ أن السنوات الثمانين التى تمتد من منتصف القرن الحادى =

القرن الحادى عشر • وكان اصلاح العالم يعنى اخماد الحروب الاقطاعية التى كانت سمة من سمات المجتمع الذى اختفت فيه السلطة المركزية ، وتعرض لكثير من الغارات الجرمانية المتوالية • وكان الأساقفة ومقدمو الأديرة قد اندمجوا فى البناء الاقطاعى بحيث باتت الكنيسة متورطة فى الالتزامات الاقطاعية ، وظهر من بين رجالها من يقود فرسانه فى حرب اقطاعية • ولم يجد المصلحون وسيلة فعالة لمنع الحروب الاقطاعية تماما ؛ ولكنهم توصلوا الى صيغة عملية لتحديد نطاقها • وجاءت حركة السلام المتمثلة فى « هدنة الرب » لتمنع القتال فى نهاية الأسبوع وفى الأيام المقدسة ، وطوال فترة الصوم الكبير ؛ بحيث لم يعد للحروب الاقطاعية سوى فترة الصيف فقط • ومن ناحية أخرى جاءت حركة « سلام الرب » لتشمل الأشخاص فى محاولة لزيادة عدد غير المتحاربين ، أو من تصيبهم الحروب الاقطاعية بشرورها • اذ أن هذه الحركة كانت تحرم شن الحرب على رجال الكنيسة ، والحجاج ، والتجار ،

= عشر حتى نهاية العقد الثالث من القرن الثاني عشر ، كانت هى الفترة التي شهدت حركة الاصلاح الجريجوريانى وهى أيضا فترة النمو التجاري الضخم ، وفترة صعود المجتمعات الحضرية ، كما أنها فترة التعبير الأول عن النفوذ السياسى للطبقة البورجوازية الناشئة • كان ذلك عصرا انتهت فيه عزلة أوربا عن عالم البحر المتوسط ، وبدأ الاوربيون يحاولون النيل من المسلمين والبيزنطيين الذين طالت سيطرتهم على حوض البحر المتوسط وتجارته • بيد أن جميع التغيرات التى حدثت جاءت بعد النضال الفكرى والتحول الايديولوجى • فقد كان المصلحون الجريجوريانيون يشكون من سيطرة الدولة على الكنيسة وتورط الكنيسة فى الالتزامات الاقطاعية ، والسيمونية (أى بيع الوظائف الدينية) • والجدير بالذكر أن هذه الحركة الاصلاحية لم تكن استمرارا للحركة الكلونية التى بدأت فى القرن العاشر ، وانما كانت ثورة على الأديرة الكلونية التي باتت حجر عثرة فى سبيل تقدم الكنيسة • انظر :

Norman F. cantor, The Medieval History, (New York 1969), PP. 271 — 78.

والنساء ، والمسنين ، والفلاحين وممتلكاتهم من الثيران والبغال ، ومستلزمات الزراعة بوجه عام • أى أن حركة « سلام الرب » كانت تحمى العناصر الكنسية ، والتجارية ، والزراعية ، والنسائية فى المجتمع من التعرض لهجمات المتحاربين • وعلى الرغم من ذلك ، فان حركة السلام المتمثلة فى « هدنة الرب » و « سلام الرب » لم تكن تحقق نجاحا كبيرا ما لم يكن أحد كبار الأمراء الاقطاعيين يسعى لتحقيق مأرب خاص من خلال تأييده لها • كما أن كثيرين من الأمراء والفرسان الاقطاعيين كانوا يحنثون فى ايمانهم التى قطعوها بالحفاظ على هذه الحركة •

وحينذاك وجدت الكنيسة أنه لابد من تكوين قوة سلام يخدم الاكليروس فى صفوفها فى كل من فرنسا والمانيا لاقرار النظام ، والضرب على أيدى من يعبثون بحركة « هدنة الرب » وحركة « سلام الرب » • وكانت هذه الخطوة بمثابة تغيير جذرى فى موقف الكنيسة من الحرب (٢) • ورب قائل بأن الكنيسة لم تلعب دورا فى الحرب ولكنها كانت تقوم بمهمة بوليسية ، ولكن الواقع أن الكنيسة قد رفعت السيف ، وأخذت تضطلع بالدور العادى للدولة ؛ فقد كون جريجورى السابع جيشا أسماه جيش القديس بطرس militia Sancti Petri ، وكان أولئك هم جنود الكنيسة المسلحين • وقد حدث ذات مرة أن أفلت زمام جيش السلام الكنسى وراح جنوده ينهبون البلاد ويقتلون العباد مما اضطر أحد الكونتات المحليين الى تجريد جيش مضاد لكى يعيد النظام الى صفوف جيش السلام الكنسى • وحين انقشع غبار المعركة التى دارت بين الجيشين كانت

---

(٢) حول هذا الموضوع أنظر :

Hans Eberhard Mayer, The Grusades (trans. from German by John Gillingham), Oxfor University Press 1972, PP. 19 — 20.



هناك سبعمائة جثة من جثث جنود الكنيسة تغطى ساحة القتال (٣) . وهكذا أدلت البابوية بدلوها فى حركة الاصلاح بشكل أدى فى النهاية الى تأكيد مكانة البابوية وحكمها على العالم الغربى الكاثوليكى ، وسرعان ما أدى هذا الى الصراع الجاد العنيف ضد الامبراطورية . هذا الصراع الذى تجسد كأوضح ما يكون بين البابا جريجورى السابع والامبراطور هنرى الرابع فيما عرف باسم مشكلة التقليد العلمانى (٤) .

كان البابا جريجورى السابع رجلا ذا ميول عسكرية ؛ فقد أقنع البابا اسكندر الثانى ، وهو ما يزال كاردينالا ، بتأييد الغزو النورمانى لانجلترا . وعندما اعتلى العرش البابوى اقترح تجريد حملة لاستعادة الممتلكات البيزنطية التى فقدتها الامبراطورية البيزنطية نتيجة لهزيمتها فى معركة مانزكرت ، أو ملاذكرد ، أمام الأتراك السلاجقة سنة ١٠٧١ م . وكان واضحا أن جريجورى السابع ينوى قيادة الحملة السيحية المقترحة بنفسه ؛ ظنا منه أن هذه الحملة ربما تؤدى ، فى حالة نجاحها ، الى اخضاع الكنيسة الشرقية واعادة توحيد العالم المسيحى تحت زعامة بابا روما . ومن ناحية أخرى كان هذا البابا الطموح يشجع حملات الاسترداد فى اسبانيا . ولا شك فى أن جريجورى السابع قد حاول أن يجعل من ورطة الامبراطورية البيزنطية بعد هزيمة مانزكرت ميزة عاجلة تفيد منها البابوية . ولكن اندلاع الصراع بينه وبين الامبراطور الألمانى ، واستمراره ، حال دون تنظيم أية حملة مسيحية الى الشرق

(٣) Frederick H. Russell, The Just War in the Middle Ages, Cambridge University Press, 1973, P. 17.

(٤) عن تفاصيل هذا الصراع انظر :

Cantor, op. cit., PP. 286 — ff.

أيضا : سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى (الطبعة السادسة ، الانجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٧٥) ج ١ ، ص ٣٣٨ ـ ٣٩٤ .

أثنـاء بابوية جريجورى السابع ، وجـاء البابا أربـان الثانى Urban II ، الذى كان أكثر اعتدالا وأقل عدوانية وطموحا منه ، لكي يبدأ الحركة الصليبية .

ونجد أنفسنا فى مواجهة سؤال يطرح نفسه فى الحاح عن حقيقة الدوافع التى دفعت البابوية لشن حرب مقدسة ضد المسلمين فى المنطقـة العربية ، واذا ما أردنا البحث عن الاجابة المناسبة وجدنا أنفسنا مقودين الى استعراض الخطوط العريضة فى خطاب اربـان الثانى فى كليرمون Clermont ، فى إقليـم برجاندى الفرنسى ، فى السابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٠٩٥ م . لقد كانت خطبة البابا على ما تذكره المصادر مثالا رائعا فى البلاغة قلمـا تكرر فى العصور الوسطى (٥) . فالواضـح أن البابا قد استطاع أن يمس كافة الدوافع التى يمكن أن تكون كامنة فى وجدان سامعيه ، وأنه قد لعب على أوتار الأمل والطمع فى نفوسهم . ومن ناحية أخرى يستطيع المتأمل فى خطاب اربان أن يرصد بعض دوافع البابوية وراء الدعوة الى شن حرب مقدسة ضد المسلمين .

لقد كانت دوافع البابوية مزيجا مختلطا . فان الحرب المقدسة ، كأداة من أدوات سياسة البابا الخارجية ، تستهدف مكاسب عديدة :

---

(٥) الحقيقة أن النص الأصلى لخطبة اربان الثانى لم يصلنا ، وانما وردت لنا فى كتابات المؤرخين المعاصرين عدة صياغات له - أنظر :
RHC., Hist. Occ., III, 727 — 28, III, 770, IV, 16
حيث روايات فوشيه دى شارتر ، وروبير الراهب ، وبلوريك على التوالى . انظر الترجمة الانجليزية فى :
Edward Peters (ed.), The First Crusade — The Chronicle of Fulcher of Chartres and Other Source Materials (University of Pennsylvania Press 1971), pp. 2 — 16.
حيث يورد ترجمة لكل من روبير الراهب ، ورواية المؤرخ المجهول ، وبلوريك ، وجيوبرت النوجنتى على التوالى ، ثم خطاب التعليمات الذى وجهه البابا اربان الى الصليبيين .

منها ما هو معلن ومنها ما هو خفي ويمكن فهمــه من اســتقراء الظروف التاريخية ، ففى المحل الأول كانت الحملة المزمع القيام بها تنشد استرداد الأراضى المقدسة من المسلمين ، وحماية طرق الحجيج المسيحى · بيد أنه من الواضح أيضا أن البابا رأى فى مثل هذه الحملة فرصة لتوحيد كنيستى الشرق والغرب (اللتين كانتا قد تباعدتا تماما منذ الشقاق الكبير الذى حدث سنة ١٠٥٤ م) تحت زعامته ؛ بحيث يتم تكريسه زعيما للعالم المسيحى بالشكل الذى يدعم موقفه فى مواجهة الامبراطورية · كذلك كانت البابوية ترغب فى توظيف الميول الحربية لفرسان الغرب ، الذين لا يكفون عن الاقتتال ، فى خدمة غرض عام يفيدهم ؛ ولا سيما أن حركة السلام التى ترعاها الكنيسة كانت قد لقيت تجاهلا تاما من جانب بعض أهم مؤيديها · ويمكن أن نلاحظ فى هذا الصدد أن سادة الأراضى التى تم استردادها من مسلمى الأندلس فى غضون القرن الحادى عشر قد صاروا أفصالا اقطاعيين تابعين للبابا فى روما ؛ وهو ما يعنى أن البابوية كانت تسعى الى أن تكون الأرض المقدسة ، بعد أخذها من المسلمين ، تابعة للبابا · ومن ثم تكون هــذه الحــرب المقدسة تعبيرا عمليا عن زعامة البابا الروحية للعالم المسيحى ، وهى زعامة كانت تمثل ركنــا جوهريا من أركــان وجود البابوية ذاتها · كما أن البابوية كانت ترى أن الحرب المقدسة يمكن أن تجتذب شعوب الشمال الأوربى الى علاقات أكثر توطدا مع البابوية ؛

وعلى الجانب الآخر ، كانت دوافع من قبلوا المشــاركة فى هذه الحرب المقدسة مزيجا غريبا ومثيرا من العوامل والأسباب · واذا كانت المثالية والرغبة فى الحصول على الأراضى ، والبحث عن المجد الشخصى أهم الأسباب التى حفزت أبناء الطبقات العليا الى حمل شارة الصليب ؛ فان الظروف الاجتماعية المحيطــة هى التى دفعت بالكثير من أبنــاء الطبقات الدنيا فى غرب أوربا الى الرحيل صوب المشرق جنودا فى جيش مقدس ، يحظون بمســاندة

اخوانهم وبمباركة البابا بحثا عن فلسطين الأرض « التى تفيض باللبن والعسل » • ولأن أحلام المقهورين فى أوربا العصور الوسطى لم تكن تتحقق الا فى القليــل النادر ، فانهــم انطلقوا فى هذا السبيل الوعر دون أن يعبأوا بمخاطر الطريق الى الأرض المقدسة ، أو بما ينتظرهم على ترابها من أهوال ومشاق فى غياهب المجهول • ذلك أن شيئا لم يكن ينتظرهم فى أوربا سوى الموت جوعا وقهرا تحت سيطرة أسيادهم الاقطاعيين وحروبهم الدائمة • أما فى الأرض المقدسة فهناك أمل دينى وطمع دنيوى يجذبهم الى امكان تحقيق ظروف معيشية أفضل ، فضلا عن الوعد الذى بذله البابا لهــم بالخلاص •

والحقيقة اننا لا يمكن أن ننكر أن العامل الدينى كان موجودا بشكل ما ، ولكنه كان نابعا من تدين عاطفى يقوم على التعصب المقيت ، ولم يكن تدينا عقلانيا حقيقيا • ذلك أن الجــو المحموم الذى أشاعته الدعاية المسعورة ضد المسلمين ، والتى أذكت جهود البابوية والمبشرين الجوالين من أمثال بطرس الناسك نيرانها •• هذه الدعاية جعلت نفوس بعض الفرسان تضطرم بالرغبة فى قتل المسلمين الذين شاعت عنهم قصص تدمير الكنائس وقتل المسيحيين وتعذيبهم • ولأن غرب أوربا آنذاك كان يجهل الصورة الحقيقية للمسلمين ، فان مقاتليه الذين ساهموا فى الحرب المسيحية ضد مسلمى الأندلس كانوا يظهرون من دلائل القسوة والوحشية ما كان يتعارض مع تصرفات المسيحيين الأسبان أنفسهم • ولا شك فى أن بعض الناس قد حملوا شارة الصليب أملا فى نيل الغفران والدخول فى رحمة الرب •

ومع ذلك ؛ فان الفرسان الذين لا يملكون أرضا ، والأبنــاء الصـــغار فى الأسر الاقطاعية ممن لا يحق لهــم وراثة الاقطاع (بمقتضى القانون الاقطاعى الذى كان يجعل الوراثة حقــا للابن

الأكبر فقط) قد انضموا الى الحملة المقدسة يحدوهم الأمل فى أن يحققوا لأنفسهم الأرض والمكانة التى لم يتمكنوا من تحقيقها فى أوطانهم . ولقد لعب البابا اربان الثانى على أوتار هذا الأمل بشكل صريح حيث أشار فى خطبته الى حالة الجوع الى الأرض التى باتت أوربا الغربية تعانى منها عشية الحروب الصليبية . ذلك أن غروب شمس القرن الحادى عشر توافق مع تثبيت حدود الدوقيات والكونتيات الاقطاعية فى فرنسا وقيام نمط من التوازن السياسى البدائى فيما بينها . وهو ما كان يعنى بالضرورة أن فرصة الأمراء الاقطاعيين للغزو داخل أرض الوطن قد باتت ضئيلة بالفعل . ومن ثم فان اشتراكهم فى الحروب الصليبية كان فرصة مناسبة لتحقيق طموحاتهم . فقد كان كثيرون من فرسان الغرب الأوربى فى القرن الحادى عشر تواقين الى المغامرة فى الخارج ، وجاءت الدعوة الى الحملة الصليبية لتروى تعطشهم الى المغامرة . وكان من الواضح أن مثل أولئك الفرسان (ومنهم على سبيل المثال ريمون أمير تولوز وجودفرى أمير اللورين) سوف يستجيبون لأية دعوة توجهها الكنيسة لشن حرب مقدسة ضد المسلمين فى الشرق . ومن ناحية أخرى كان بعض الأمراء الذين شاركوا فى هذه الحملة يبحثون عن فرصة يحرزون فيها نصرا عسكريا يعيد لهم الهيبة التى فقدوها فى أوطانهم ، على حين وجد البعض فى هذه الحملة المقدسة فرصة للهروب من العدالة .. والحقيقة أن دوافع المشاركين فى الحملة تختلف اختلافا كبيرا بحيث يصعب احصاؤها جميعا .

أما النورمان فى ايطاليا فقد تحركوا للمشاركة فى الحملة المقدسة بدافع كراهيتهم العميقة ضد البيزنطيين ؛ اذ كان هؤلاء يرون فى الحملة المقدسة عملا عسكريا موجها ضد البيزنطيين أكثر منها حربا ضد المسلمين . ذلك أن بوهيموند Bohemond أبرز

قادتهم ، كان قد قام فى وقت سابق بحملة ضد الدولة البيزنطية بالفعل (٦) ٠

على أية حال ؛ كان من الممكن توقع ردود أفعال أبناء الطبقة العليا ازاء خطبة البابا اربان الثانى فى كليرمون ٠ ولكن المثير حقا كان هو صدى الدعوة الى الحرب المقدسة على الصعيد الشعبى ٠ وفى تصورنا أنه فى مجتمع له ظروف الغرب الأوربى فى القرن الحادى عشر ، حيث تسود مظاهر الجهل وتتفشى الأمية ، وحيث تختلط المفاهيم الدينية بالخرافات والخزعبلات ، كان لابد أن تأتى استجابة العامة لمثل هذه الدعوة قوية ، بل وهستيرية ، وهو ما حدث بالفعل ٠ ففى هذا الجو كانت تشيع أنباء عن الرؤى والأحلام المقدسة ، وظهور القديسين والقديسات ، والنجوم التى تتساقط من السماء ، وفى هذا الجو أيضا يكتسب المشعوذون والمبشرون الجوالون من أمثال بطرس الناسك مكانة هائلة فى نفوس الناس البسطاء ٠ فقد كان بطرس وأمثاله تجسيدا للتطرف الدينى الذى حكم المجتمع الغربى فى القرن الحادى عشر بعد اقتراب الألف الأولى بعد المسيح من تمامها وتوقع الناس لنهاية العالم ويوم القيامة (٧) ٠

---

(٦) حول هذا الموضوع أنظر :

The Alexiad of Anna Comnena, Translated from the Greek by E. R.A. Sewter (Penguin 1979), PP. 166 — 173; F. Cholandon, Essai sur le reigne d'Alexis 1er Comnene, 1081 — 1118 (Paris 1900), PP. 84 — 87.

كذلك : عبد المغنى محمود عبد العاطى ، السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية فى عهد الامبراطور اليكسيوس كومنين ١٠٨١ ـ ١١١٨ (رسالة دكتوراه غير منشورة ـ جامعة المنصورة ١٩٨١ م) ، ص ١١٤ ـ ١١٥ ٠

(٧) حول هذا الموضوع أنظر :

L'An Mille — Oeuvres de : Luitprand, Raoul Glaber, Ademar de Chabannes, Adalberon, et Helgaud (traduites et présentées par : Edmond Pognon) France 1974.

ومن ناحية أخرى ، فاننا يمكن أن تفسر النجاح الغريب الذى حظيت به الدعوة الى الحرب المقدسة في ضوء حياة الفلاحين فى شمال غرب أوربا التى كانت حياة عابسة وغير آمنة (٨) · فقد خربت مساحات كبيرة من الأرض الصالحة للزراعة بسبب الغزوات الجرمانية ثم الغارات التى قام بها الفيكنج فى القرن العاشر · وغالبا ما كان السادة الاقطاعيون يعارضون محاولة ازالة الغابات والزراعة مكانها لأنها كانت المكان الذى يمارسون فيه رياضة الصيد التى كانت شاغلهم الأساسى فى غير أوقات الحروب · كما أن القرية التى لم تكن تتمتع بحماية أحد النبلاء الاقطاعيين غالبا ما كانت تتعرض للسلب والنهب أو حتى الحرق بأيدى العصابات الاقطاعية المتحاربة ، أو على أيدى عصابات الخارجين على القانون · وعلى الرغم من أن الكنيسة حاولت أن تلعب دورا فى حماية الفلاحين ، فان ما قدمته فى هذا المجال لم يكن على أية درجة من الفعالية والأهمية · ومن ناحية أخرى ، ساهمت الكوارث الطبيعية فى زيادة المساحات القاتمة الكئيبة فى الصورة ·

هكذا ، اذن ، لعبت الظروف الاجتماعية والاقتصادية دورها فى الاستجابة السريعة المذهلة للدعوة التى وجهها البابا الى جماهير الاوربيين · فقد كانت جموع الفلاحين المطحونين فى مجتمع يستولى الاقطاعيون فيه على نتاج عملهم فى الحقول ، ويتركونهم

---

(٨) نكتفى هنا بالاشارة الى الخطوط العريضة ونحيل القارىء الى بعض المراجع المتخصصة · انظر :

Painter, S., A History of the Middle Ages (England 1953), PP. 118 — 122; Mayer, The Grusades, PP. 22 — 23; Kenneth M. Setton (ed.,) A History of the Gursades (Philadelphia 1955), I, p. xx.

أيضا : نورمان ف·كانتور ، التاريخ الوسيط ـ قصة حضارية : البداية والنهاية (ترجمة وتعليق د· قاسم عبده قاسم ، دار المعارف ١٩٨١) ج ١ ، ص ٣٤٥ ـ ٣٦٨ ·

فى مستوى معيشى أدنى من حيوانات الحقل ، هو أول من استجاب لدعوة اربان ٠

على أية حال ، فان البابوية سرعان ما أصدرت مرسوما عاما بالغفران لكل من يحمل شارة الصليب ، ثم أعلنت أنها سوف تتولى حماية أملاك المشاركين فى هذه الحملة ٠ وهكـذا بدأت الحروب الصليبية ٠ وكانت هذه الحروب حربا بدأتها الكنيسة لا الدولة ، ولم يكن المشاركون فيها يأتمرون بأمر حاكم علمانى ؛ امبراطورا كان أم أميرا ؛ وانما كانوا يتطوعون لحمل شارة الصليب بناء على وعد من البابا بالغفران ٠ كانت الحروب الصليبية علامة على عسكرية المسيحية ، وتجلى ذلك واضحا فى حقيقة أنه كان يمكن لرجال الدين أن يحاربوا فى صفوف الحملة المقدسة دون أن يتحملوا تبعات التكفير والتوبة ٠ حقيقة ان الحملات الصليبية التى تلت الحملة الأولى قد جاءت تحت قيادة الملوك والأمراء العلمانيين ، ولكن الحملة الأولى كانت من عمل البابا ، كما أن الأمراء والفرسان قد حملوا شارة الصليب استجابة لدعوته ٠

خرجت فكـرة الحـرب المقدســة الى حين التنفيذ ، وكان الاصلاح الكنسى الذى بدأته الأديرة الكلونية ، ثم قادته المجموعة الجريجوريانية ، والسياسة البابوية ، ونظرية الحرب المقدسة هى الخلفية التى استندت اليها خطبة البابا اربان الثانى فى كليرمون سنة ١٠٩٥ م ٠ ومن ناحيـة أخـرى كانت الظـروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية السائدة فى أوربا آنذاك هى الخلفية التى خرجت منهـا دلائل الترحيب والقبول والحماسة التى قـابل بها المعاصرون خطبة البابا ٠ وهذه العناصر هى التى شكلت الروح التى دفعت الجهود الدعائية التى سـاهمت فى تشـكيل الجيوش المسيحية التى توجهت لقتال المسلمين فى فلسطين ، كما كانت هى القوة الدافعة لحملة الفلاحين أو الحملة الشعبية ٠ لقد كانت الفكرة

الصليبية نتاجا لتفاعل القوى التى لبت نداء البابوية فى كليرمون ، ثم خبرات أولئك الذين شاركوا فى الحملة الأولى بالفعل .

وفى تصورى أن هذه الحملة الصليبية قد ولدت فى أذهان من عايشوها وخاضوا أحداثها بالفعل ؛ ومن ثم فاننا يجب أن نتوخى الحذر ونحن نستخدم مصطلح « الحملة الصليبية الأولى » . ذلك أن صياغة فكرة الحملة الصليبية ، كمثال ونموذج ، قد تمت من خلال تجربة الحملة الأولى ، وخرجت من طياتها لتخلق نموذجا ثابتا فى أذهان الدعاة الذين روجوا لفكرة خروج الحملات التالية .

وعلى مدى قرنين من الزمان تقريبا ، منذ خروج الحملة الأولى من أوربا سنة ١٠٩٦ م وحتى سقوط آخر المعاقل الصليبية فى بلاد الشام سنة ١٢٩١ م ، توالت على شاطىء البحر المتوسط الشرقى موجات عديدة من الأوربيين الذين جاءوا بعشرات الألوف ، زرافات ووحدانا ، من المقاتلين والحجاج ، فى مجموعات عسكرية صغيرة بقيادة الأمراء الاقطاعيين ، أو فى جيوش كبيرة يقودها أكبر حكام أوربا آنذاك . وهو ما يعنى أن الحملات الصليبية السبع الشهيرات لا تعبر عن واقع الحال ؛ اذ كانت الحركة الصليبية فى حقيقة الأمر أكثر من أن تكون مجرد هذه الموجات الكبيرة التى كانت تضرب من حين لآخر على شاطىء فلسطين (كانت هذه الموجات الصليبية تضرب أحيانا شواطىء عربية أخرى فى مصر وشمال افريقيا ، بل ان الحملة الرابعة ضربت القسطنطينية المسيحية) ، وانما كانت بمثابة تقاطر مستمر من الحجاج ، والمحاربين ، والتجار ، والقراصنة ، والنبلاء الجوعى للارض ، والمجرمين ، وشذاذ الآفاق .. الذين اتخذوا من الشرق « العجيب » هدفا ومقصدا .

لقد كان الاستعمار الاستيطانى هو أبرز أهداف الحركة الصليبية . وحين تحقق هذا الهدف فرضت آثاره السلبية نتائجها

على المنطقة العربية • وكانت أول امارة صليبية شادها الغرب الكاثوليكى فوق الأرض العربية هى امارة الرهـا التى استولى عليها بلدوين Baldwin ليقيم بذلك شعار بيت أمراء اللورين بين نهرى دجلة والفرات • وفى سنة ١٠٩٨ م تمكن الصليبيون من الاستيلاء على انطاكية بفضل خيانة الأرمن • وفى انطاكية بدأ الافلاس الايديولوجي للحركة الصليبية يكشف عن نفسه في وضوح • فحين توقف القتـال تجسـد هذا الافـلاس فى بؤرة شـريرة من الدسائس والصراعات والمؤامرات التى امتدت خيوطها بين زعماء الصليبيين • وفى خضم الصراع تفرق الجيش الصليبى ، وأخذ فرسانه يغيرون على المناطق الريفية المجاورة بهدف انتزاع أملاك خاصة لكل منهم (٩) • واذ كانت المقاومة المحلية ضعيفة ، خضعت القرى والمناطق الريفية القريبة للصليبيين الذين استطابوا العيش فى هذه المنطقة ، ونسوا هدفهم المعلن بتحرير بيت المقدس • ولكن ثورة الفقراء الذين كانوا ما يزالون يحلمون بتحقيق الحلم الذى حرك مسيرتهم الطويلة أجبرت القادة على أن يتحركوا صوب بيت المقدس •

وبعد عدة أحداث تمكن الصليبيون من الاستيلاء على بيت المقدس فى نهاية الأمر • وقد أعقبت انتصـار الصليبيين مذبحة شنيعة راح ضحيتها المدافعون عن المدينة من أفراد الحامية المصرية الذين سلموا بشرط ضمان حياتهم ، فضـلا عن سـكانها غير المحاربين • وبعد المذبحة الرهيبة توجه جودفرى البويونى يتبعـه

(٩) عن نشـاط الصليبيين فى المناطق المحيطـة بانطاكية ـ أنظر : ابن العديم ، زبدة الحلب فى تاريخ حلب (تحقيق سامى الدهان ، دمشق ١٩٥١) جـ ٢ ، ص ١٣٢ وما بعدها ، ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق (مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨) ص ١٣٤ ـ ١٣٥ ، عاشور ، الحركة الصليبية (الطبعة الثانية ـ مطبعة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧١) جـ ١ ، ص ١٩٣ ـ ١٩٤ ـ أنظر كذلك :
Raymon d'Aigles, RHC., occ., III, P. 245.

الصليبيون فى أعداد متزايدة ، بعــد أن رووا ظمأهم من دمــاء ضحاياهم من النســاء والأطفــال وغير المحاربين ، الى الضريح المقدس . وفى هذا الجو الموحش الذى يلفه الصمت الرهيب ، وتفوح فيه الروائح الكريهة الصــادرة عن المنــازل المحترقة والأجســاد المتناثرة ، كانت دموع الفــرح تسيل على وجوه الصليبيين التى أرهقها القتال ، وترددت فى جنبات كنيسة القيامة عبارة Te Deum laudamus « أى نحمدك يا الله » (١٠) . وكما كانت عبارة « الله يريدها » التى أطلقهــا الحاضرون فى مجمــع كليمون هى صيحة القتــال الصليبية التى بدأت بها الحركة ، كانت عبــارة « نحمدك يا الله » التى أطلقها الصليبيون فى الكنيسة المقدسة اعلانا ببداية الوجود الصليبى على الأرض العربية .

ونتيجة للنصر الذى أحرزته الحملــة الصليبية الأولى قامت فوق الأرض العربية عاصمة مسيحية لمملكة لاتينية ، كما قامت عدة مستوطنات صليبية فى الرها ، وأعالى النهرين ، وانطاكية وسوريا وفلسطين فضلا عن بعض مناطق الشاطىء اللبنانى . وكان من الضرورى أن يتم ربط هذه المراكز الاستيطانية المتناثرة حتى يمكن بناء كيان محكــم البنيان يتميز بوحدة أراضيه . وفى بطء عنيد تحولت سيطرة الصليبيين على بعض المدن والمراكز المتباعدة الى سيادة ثابتة على أقاليم متصلة أخذت فى التوسع على مدى جيلين كاملين لم يصادفوا أثناءها مقاومة جدية ، أو محاولة عربية للتصدى لهم بسبب تخاذل الحكام العرب ، والتمزق السياسى الذى كان ينشب مخالبه فى المنطقة العربية حين قدمت الجيوش الصليبية . ولم يكن انتصار الصليبيين تعبيرا حقيقيا عن موازين القوى ؛ فقد

---

(١٠) Gesta Francorum et aliorum Hierosolimitanorum (The Deeds of The Franks and the other Pilgrims to ousalem), Edited by : Rosalind Hill, London 1962, pp. 91 — 93, p. 102.

كانت الجيوش العربية ، وموارد المنطقة الاقتصادية والبشرية تكفل هزيمة ساحقة للصليبيين اذا ما جمعتها جبهة موحدة (وهو ما حدث بالفعل بعد ذلك) ، ولكن التشرذم العربى ، بل ومسـاندة بعض المسلمين للجيوش الصليبية ، وميراث الحقد والشك والضغائن بين حكام المنطقة جعل انتصار جيوش الصليبيين أمرا منطقيا ٠٠

وآثر عدد كبير من الصليبيين أن يبقوا فى الشرق حيث كان عليهم تحمل مهام الادارة الاستعمارية الاستيطانية ٠ ولأنهم كانوا أقل كثيرا فى عددهم من السكان الأصليين ؛ فقد حاولوا قدر الطاقة أن يشجعوا الهجرة من أوربا الى فلسطين لتدعيم وجودهم ٠ وكان التجار والجنود والحجاج والمغامرون والمهاجرون يفدون من أوربا فى جماعات كبيرة أو صغيرة الى المناطق الصليبية التى اعتبرها الفرنج وطنا ثانيا أو فرنسا ما وراء البحار Outremer ٠٠ وفى بداية الأمر حاول بارونات الصليبيين وفرسانهم أن يحافظوا على ما نجحوا فى الاستيلاء عليه دون الاستعانة بالغرب الأوربى ، ولكن جسدا غريبا لا يمكن أن يعيش في منطقة معادية دون أن يجد لنفسه السند من خارج المنطقة ٠ وهكذا كان على أوربا أن تقوم بدور الظهر الذى يرعى الكيان الصليبى ويحميه باعتبـاره جزءا من الغرب يعيش تحت سماء الشرق ٠ وعلى ما يقرب من قرنين من الزمان كان الغرب يبعث برجاله ونسائه (وأطفاله أحيانا) لتدعيم الكيان الصليبى (١١) ٠ ولكـن التطورات السياسية والاجتماعية

---

(١١) تمدنا المصـادر العربية والمسيحية الغربية والشرقية بأمثلـة لا حصر لها عن أفواج القادمين الجدد من أوربا ، وهجومهم على المناطق العربية ـ أنظر على سبيل المثال : ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٧٣ ، ابن الاثير ، الكامـــل فى التـــاريخ ، جـ ١٠ ص ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٨١ ، ٢٥٠ ـ ٢٥١ ، ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ ـ ١٣٧ ، ١٤١ ، ٢٩٧ ـ ٢٩٨ ، أبو شـامة ، الروضتين فى أخبـــار الدولتين ، ص ٥١ ، ٥٢ ، ٨٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب =

والاقتصادية التى طرأت على الغرب الأوربى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، جعلت حجم التأييد الأوربى الفعلى للكيان الصليبى يتقلص شيئا فشيئا . كما أن اساءة البابوية للفكرة الصليبية حتى استخدمتها لضرب خصومها السياسيين فى أوربا ، ومن بينهم ملوك مسيحيون مخلصون للكنيسة ، جعل الناس لا يحفلون كثيرا بمصير الكيان الصليبى . حقيقة ان الفكرة الصليبية لم تختف ، ولكن وسائل تحقيقها فى نظر الاوربيين فى أخريات العصور الوسطى كانت تختلف عن رؤية أسلافهم الذين دعموا الحملة الأولى وخرجوا فى صفوفها . لقد اختلفت مصالح ومفاهيم الظهير الأوربى مع مصالح ومفاهيم الكيان الصليبى فى الشرق بالقدر الذى سار بالصليبيين فى طريق النهاية المحتوم على أيدى المسلمين فى المنطقة العربية .

ولا شك فى أن المسلمين لم يكونوا ليدعون الصليبيين يهنأون بالمدينة المقدسة التى كانت بمثابة درة التاج وواسطة العقد لدى أصحاب الديانات الثلاث ؛ كما أنهم لم يكونوا ليغضون الطرف عن وجود الكيان الصليبى فوق الأرض العربية . وعلى الرغم من تخاذل الحكام العرب فى الاتحاد لمواجهة الخطر الصليبى منذ

= ج ١ ، ص ١٤٠ ، المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٧٥٤ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ ، ٢٣٦ . انظر كذلك متى الرهاوى RHC., Ooc. Arm., I, P. 90 وميخائيل السوريانى RHC., Roc. Arm., I, PP. 327 — 329 . انظر بعض الدراسات الحديثة :

Boase, T.S.R., Kingdoms and Strongholds of the Grusaders, (London 19171) pp. 20 — 23, 31 — 32; Bradford, E., The Sword and the Scimiter — The Saga of the Grusades, (London 1974), p. 197; Le Duc de Castries, La conquête de la Terre Sainte par les Criisées (Paris 1973), PP. 83 — Sq.

البداية ، فان المصادر التاريخية ، عربية ولاتينية وبيزنطية وأرمنية ؛ تحدثنا عن أن الحرب لم تتوقف ضد الصليبيين منذ وطأت أقدامهم الأرض العربية • ولكن الحكام كانوا على حال من التنازع والأنانية ، وقصر النظر فى المرحلة الأولى بحيث توصل الكيان الصليبى الى أقصى اتساع له خلال جيلين • وقد شهدت السنوات الخمسون التى أعقبت قيام مملكة بيت المقدس اللاتينية حركة توسع صليبية فى كل اتجاه ، كما شهدت عجز الدول والامارات الاسلامية المطلق عن التعاون فى خلق جبهة موحدة ضد الصليبيين • وبين الحين والحين كانت القوى الاسلامية تعقد بعض الإتفاقات فيما بينها بقصد العمل المشترك ، بيد أن هذه التحالفات السريعة كانت لا تلبث أن تنفصم عراها بنفس السرعة التى تمت بها نتيجة لميراث الشك المتبادل والحرص على المصالح الذاتية بالقدر الذى جعل البعض يتحالف مع العدو الصليبى •

وعلى الرغم من أن الفشل السياسى فى توحيد الجهود العربية ازاء الخطر الصليبى كان يؤدى بدوره الى مزيد من الاخفاقات العسكرية ، فان الرأى العام الاسلامى بدأ يضغط بكل قواه على الحكام • وحين فشل محور القاهرة ـ دمشق فى التصدى للعدوان الصليبى نتيجة لأحوال الدولة الفاطمية المتدهورة ، وأحوال حكام دمشق ، بدأ يظهر فى الأفق دليل على أن شيئا ما قد أخذ يتغير فى المعسكر الاسلامى • وجاء هذا التغيير من بين جماهير المسلمين الذين أدركوا مدى فداحة الخطر الصليبى من جهة ، وفشل القيادات الحاكمة من جهة أخرى • فقد أثارت أعداد اللاجئين التى تدفقت من بلاد الشام الى سائر بلاد المنطقة العربية مشاعر الغضب والاستياء ضد الحكام • وفى البداية عبر الناس عن مشاعرهم الغاضبة فى المساجد ، ومن فوق المنابر فى صلاة الجمعة ، وبدأت الدعوة الى الجهاد تسرى فى أوصال العالم الاسلامى ، وسرعان ما تحولت الى حركة شعبية ضاغطة يقودها المفكرون وأصحاب

الرأى ، وسطرت الكتب ودبجت الرسائل التى تتحدث عن الجهاد وفضـل المجـاهدين ، وعن مكانة بيت المقـدس وأهميته بالنسبة للمسلمين • وفى ظل هذه الحركة تكون رأى عام قوى وضاغط بحيث لم يعد فى وسع الحكام أن يتجاهلوه ، وقيض لهذه الحركة أن توجه مجرى الأحداث على مدى ما يزيد على قرنين من الزمان •

وفى ظل هذا البعث الفكرى ، ظهر عماد الدين زنكى ليقود حركة المقاومة العربية ضد الصليبيين على محور جديد هو محور الموصل ـ حلب ، بدلا من محور القاهرة ـ دمشق الذى أثبت فشله بسبب الضعف والتفكك الداخلى فى مصر والشام آنذاك • وأخضع عماد الدين زنكى المنطقة الواقعة بين الموصل وحلب لسلطانه ، وما لبث أن صار هو أقوى حاكم اسلامى فى زمانه لأنه طوع قوته وسلطانه فى خدمة المطلب الشعبى العام : أى الجهاد ضد الفرنج • فقد قامت المدارس ، والعلماء ، والمتدينون بخلق مناخ للرأى العام كان من المتعذر فى ظله أن يتجنب الحكام فى الشام ومصر المواجهة المباشرة للتحدى الذى فرضه الوجود الصليبى ، وشيئا فشيئا نجح عماد الدين زنكى فى التغلب على النعرات الانعزالية فى كل من الشام والعراق • وفى سنة ١١٤٤ م شن هجوما ناجحا على الرها واستردها لتكون بذلك أول امارة صليبية على تراب الشرق تسقط فى أيدى المسلمين • وفى سنة ١١٤٦ قام الصليبيون بمحاولة فاشلة لاستعادتها ، ولكن نور الدين محمود خليفة زنكى ووريثه قضى على المحاولة ؛ ومن ثم انتهى الضغط الصليبى على مناطق أعالى الفرات •

ولكن نور الدين لم يكن ليقدر على شن هجوم حاسم على الصليبيين لأن سيطرته على محور الموصل ـ حلب لم تكن قد رسخت بعد ، كما أن خروج محور القاهرة ـ دمشق عن نطاق سيطرته كان عاملا سلبيا فى حسابات القوة • اذ كان حكام دمشق عقبة كؤودا فى طريق توحيد الجبهة الاسلامية ؟ فقد كانت دمشق قد

توصلت الى حال من التعايش السلمى مع الفرنج ؛ لدرجة أن حكامهـا استنجدوا عـدة مرات بالصليبيين فى مواجهـة قوات الزنكيين • ومن ناحية أخرى لم يكن نور الدين يستطيع أن يهاجم المملكة اللاتينية ومن وراء ظهره امارة دمشق التى لا يثق بحكامها ، فضلا عن أن مصر ، بمواردها البشرية والاقتصادية الهائلة ، كانت ضرورية لضمان النصر فى الصراع المرتقب • وجاء الحل السعيد على أيدى زعماء الحملة الصليبية الثانية التى جاءت كرد فعل أوربى ازاء سقوط الرها فى أيدى المسلمين • فبدلا من أن يحاول صليبيو الحملة الثانية استعادة الرها ؛ اذا بهم يشنون هجمـة خرقاء على دمشق • ولكن هذه الحماقة انتهت بفشلهم فى دخول المدينة ، وبمجموعة من الاتهامات التى وجهها قادة الحملـة الى المستوطنين الصليبيين بقبول الرشوة لاحباط الحصار حول دمشق • ولكن النتيجة الرئيسية لهذه الحملة تمثلت فى ارتماء دمشق فى يدى نور الدين المفتوحتين سنة ١١٥١ م •

هكذا تم توحيد الجبهة الشمالية ، وتم حشد كافة الموارد البشرية والاقتصادية والثقافية لدعم هذه الجبهة • وبسبب تماسك الجبهـة الشمالية وصلابتها اتجـه الصليبيون جنوبا حيث كانت الظروف ملائمة لتحركهم • كانت مصـر الفاطمية آنذاك بمثابة « الرجل المريض » على ضفاف النيل حيث كانت الخلافة الفاطمية عارية الا من بعض ظلال قوتها السابقة • فقد أنهكتها الكوارث الطبيعية والخلافات الداخلية ، وتوالى تغير الوزراء الذين كانوا هم أصحاب السلطة الحقيقيين فى ايقاع سريع من الفتن والاضطرابات بغية الوصول الى كرسى الحكم • وقد أدى ذلك ، بطبيعة الحال ، الى ازدياد منحنى التدهور فى قوة الدولة بشكل أغرى جيرانها على الطمع فيها • وكانت مصر بمواردها الهائلة كفيلة بترجيح كفة من يمكنه الاستيلاء عليها ، أو ضمها ، فى الصراع الدائر بين نور الدين محمود والصليبيين • وفى سنة ١١٥٠ م هاجم الصليبيون

غزة فى اشارة واضحة لاتجاههم ضد مصر ، ثم سقطت عسقلان آخر المعاقل المصرية فى فلسطين سنة ١١٥٣ • وحين هاجم الصليبيون العريش سنة ١١٦١ م ، كان ذلك تعبيرا عن اختلال موازين القوى على الجبهة الجنوبية لصالح الصليبيين ، ذلك أن أهم نتائج ذلك الهجوم كانت هى الاتاوة السنوية التى تعين على مصر أن تدفعها للصليبيين •

واخيرا حانت فرصة التدخل الصليبى والوصول الى القاهرة ، دونما معارك ، بسبب النزاع بين شاور وضرغام ؛ فقد لجأ أحد الوزيرين المتنافسين الى طلب مساعدة أمالريك Amalric (عمورى) ملك بيت المقدس ، على حين لجأ الثانى الى الاستنجاد بنور الدين • وخلال السنوات الست التالية غزا الصليبيون مصر خمس مرات • وكانت هذه فرصة رائعة للصليبيين الذين كانوا ينشدون وقف الخطر المصرى ؛ اما بغزو مصر وضمها لأملاكهم ، واما بعقد معاهدة مع المصريين لتحييدهم • ومن ناحيــة أخــرى ، أبدى البيزنطيون استعدادهم لمعاونة الصليبيين ضد مصر ، ولكن الصليبيون كانوا يثقون فى قدرتهم على تحقيق النصر دون مسـاعدة ، كما كان يحدوهم الأمل فى أن ينفردوا بثماره (١٢) • وحين قدمت قوات الصليبيين الى مصر لنصرة أحد الوزيرين المتنافسين ، قدمت قوات نور الدين محمود لنصرة الوزير الآخر •

كان هذا هو السبب المعلن ، ولكن الحقيقة أن كلا من الطرفين كان يسعى الى ضم مصر • واذا كان الصليبيون قد طمعوا فى

(١٢) Matthieu d'Edesse, RHC., Arm., I, PP. 118 sq.
Michel le Syrien, RHC., Rrm., I, PP. 346 sq., 359 — 362.
انظر أيضا : محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر (القاهرة ١٩٦١ م) ، ص ١٢ وما بعدها ، يوشع براور ، عالم الصليبيين (ترجمة وتقديم وتعقيب قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن ، دار المعارف ١٩٨١) ، ص ٧٢ — ٧٣ •

ضم مصر أو تحييدها ضمانا لكسر الجبهة العربية ، فلا شك فى أن نور الدين محمود قد أدرك أنه لن يستطيع توحيد الجبهة العربية دون مصر ، وأن ضمها هو السبيل الوحيد لتحقيق انتصار كامل على الصليبيين • ودار القتال على الأرض المصرية بين المسلمين والصليبيين ، واختارت جماهير الناس فى مصر أن تقف مع القوات العربية الاسلامية بطبيعة الحال ، واضطر الصليبيون الى الانسحاب فى نهاية المطاف ، ولكن الاستيلاء على مصر ظل سرابا يجذبهم تجاهه بين الحين والحين •

هذه الحملات الصليبية الفاشلة ضد مصر أدت الى نتيجتين غاية فى الأهمية• فقد تسببت فى تقلص الموارد البشرية والمادية للمملكة اللاتينية من ناحية ، كما أدت الى تغيير الخريطة السياسية لصالح القوى العربية من ناحية أخرى • فقد صار أسد الدين شيركوه وزيرا لمصر ، وبعد موته سنة ١١٦٩ م خلفه ابن أخيه صلاح الدين يوسف (الأيوبى) ،ثم اختفت الخلافة الفاطمية من الوجود سنة ١١٧١ م ، وعادت مصر سنية من جديد • ولكن توحيد الجبهة الاسلامية لم يتحقق الا بعد وفاة نور الدين محمود وسيطرة قوات صلاح الدين على الشام والعراق ، وكانت آخر مرحلة من مراحل بناء الجبهة الاسلامية المتحدة هى الاستيلاء على حلب سنة ١١٨٣ م وبعدها بدأ صلاح الدين يدعم قوته استعدادا للمواجهة الشاملة مع الصليبيين •

وفى تلك الأثناء قام الصليبيون بعدد من الغارات الجريئة عبر سيناء ، ووصلوا حتى بحيرات منطقة السويس (البردويل حاليا) ، كما شنوا غارات أخرى على تيماء فى شمال شبه الجزيرة العربية • وحاول رينو دى شاتيون Renaud de Chatillon (الذى عرفته المصادر العربية باسم أرناط) ، أمير الكرك ، أن يقتحم البحر الأحمر ، ويغزو مكة والمدينة ، وأن يتحكم فى حركة

التجارة الدولية بين آسيا ومصر والتى تمر عن طريق هذا البحر من خلال باب المندب • وبالفعل هاجم بعض الموانىء المصرية والحجازية ، ثم تمكنت سفن الأسطول المصرى من سحق أسطوله تماما (١٣) •

وأخيرا ، بدأ صلاح الدين عملياته ضد الصليبيين ، وكانت قمة انتصارات هذا القائد الاسلامى وجيوشه فى معركة حطين فى الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ ــ ٤ يوليو سنة ١١٨٧ م • لقد كانت هذه المعركة الحاسمة نقطة انعطاف هامة فى تاريخ المواجهة العربية الصليبية ، وكانت قيمتها الأساسية تتمثل فى أنها أول تجسيد للجبهة العربية المتحدة ؛ ففى أول مواجهة بين العرب بعد اتحادهم وبين الصليبيين ، خسر الصليبيون معظم ما كانوا قد استولوا عليه نتيجة التشتت والتفكك العربى ، وتقلصت الساحة الصليبية على خريطة فلسطين الى حد كبير • لقد كانت المعركة التى جرت بين المسلمين والصليبيين فى حطين كارثة عسكرية ونذير شؤم للكيان الصليبى ، كما كانت بارقة أمل للمسلمين نفخت فى روحهم من جديد (١٤) • أما ما حدث بعد

---

(١٣) عن العمليات التى قام بها أرناط فى البحر الأحمر وهزيمته ، انظر : العماد الكاتب الأصفهانى ، سنا البرق الشامى (تحقيق الدكتورة فتحية النبراوى ، مكتبة الخانجى ١٩٧٩ م) ، ص ٢١٢ ــ ٢١٣ ••

(١٤) عن هذه المعركة الحاسمة فى تاريخ المواجهة ضد الصليبيين الفت بعض الكتب العربية على يد بعض المعاصرين من شهود العيان ، أشهرها النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المعروف بسيرة صلاح الدين ، وهى من تأليف بهاء الدين بن شداد الذى كان شاهد عيان بحكم كونه من أقرب مساعدى صلاح الدين • وقد قام على نشرها وتحقيقها الدكتور جمال الدين الشيال سنة ١٩٦٤ م ، كذلك كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى للعماد الكاتب الاصفهانى الذى كان من المقربين الى صلاح الدين وشهد معاركه بنفسه ، وقد حقق الكتاب ونشره محمد محمود صبح سنة ١٩٦٥ • كما أن المؤرخ نفسه هو الذى كتب سنا البرق الشامى الذى أشرنا اليه من قبل •

هزيمة الصليبيين فى حطين فكان أشبه باستعراض عسكرى منه بالحرب ؛ فقد أخذت المدن والحصون تفتح أبوابها تباعا أمام جيوش صلاح الدين ، وفى أكتوبر من سنة ١١٨٧ م ، أى بعد ثمانية وثمانين عاما من السيادة اللاتينية عادت بيت المقدس مدينة اسلامية مرة أخرى . ولم يتبق بأيدى الصليبيين سوى صور وانطاكية وطرابلس .. وبعض القلاع المتناثرة .

وجاء رد الفعل الأوربي تجاه سقوط بيت المقدس وغيرها من القلاع الصليبية متمثلا فى الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ثلاثة من كبار ملوك أوربا هم ؛ فردريك بربروسا ملك المانيا الذى قاد القوات الألمانية وهو فى السبعين من عمره ، وفيليب اوغسطس ملك فرنسا المخادع ، وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا . وغرق بربروسا حين نزل ليستحم وهو فى الطريق وانتهى الأمر بمشاركة الألمان فى الحملة بصورة رمزية . وسرعان ما ظهر أن فيليب أوغسطس المستخف الماجن لا يريد سوى التظاهر بقتال المسلمين لأنه كان تواقا للعودة الى وطنه لكي يواصل نسج مكائده ضد الملك الانجليزى (١٥) . أما ريتشارد فقد أخذ الحملة بجدية شديدة ، ومع ذلك فان الحملة لم تنجح الا فى استرداد عكا بعد معارك مضنية وعنيفة . لقد كشفت الحملة الثالثة عن أن اهتمام ملوك أوربا وحكامها بمصير الصليبيين فى الشرق قد بدأ يتراجع امام اهتمامهم برعاية مصالحهم الأسرية والاقليمية ؛ وهو تيار أخذ يشتد بحيث لم يكن معظم حكام أوربا يقدمون للحركة الصليبية ما هو أكثر من الدعم الهامشى .

انتهت معارك الحملة الثالثة بعقد معاهدة بين صلاح الدين وريتشارد سنة ٥٨٨ هـ ـ ١١٩٢ م . وبعدها عاد ريتشارد الى بلاده . وبعد الهدنة بسنوات ثلاث توفى صلاح الدين وبوفاته

---

(١٥) Cantor, Medieval History, PP. 328 — 329.

تفسخت دولته بسهولة وسرعة • فقد كان هذا الرجل الفذ هو الذى يحفظ الدولة من التفسخ ، ولم يكن هناك مبدأ سياسى متوارث ، أو نظام داخلى متناسق يشد أطراف مملكته الواسعة بعضها الى بعض • وسرعان ما ساد التوتر بين الورثة من أبناء البيت الأيوبى ، وهو أمر كانت نتيجته الحتمية أن تمتعت المملكة اللاتينية على أرض الشام بالسلام لفترة تقرب من عشر سنوات •

كان واضحا أن قوات الصليبيين لم تكن ندا للمسلمين ؛ ومن ثم انعقد أمل المملكة الصليبية على قدوم حملة جديدة من أوربا تفتح لهم مجالا للتوسع • واذ خيبت الحملة الصليبية الرابعة آمال المستوطنين اللاتين فى الشرق العربى باتجاهها الى القسطنطينية ، توجهت مجموعة ضئيلة من جنود هذه الحملة الى فلسطين لتنضم الى سكان ما بقى من الكيان الصليبى ، وبعد عدة تقلبات جاءت الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة لكى تفتح فصلا جديدا فى تاريخ الوجود الصليبى ؛ اذ كان الهدف الأساسى لهذه الحملة هو مصر ؛ فقد كانت هناك أسباب عديدة تحفز الصليبيين على الهبوط فى دلتا النيل بدلا من ضفاف الأردن : وأهم هذه الأسباب الرغبة الجامحة من جانب المدن الايطالية التجارية (الممول الرئيسى لهذه الحملة) فى السيطرة على السوق التجارية الرئيسية فى حوض البحر المتوسط ، وضرب المنافسة المصرية القوية • أما السبب الثانى فكان نابعا من المذهب السياسى العسكرى للصليبيين ، والذى كان يرى فى القضاء على مصر ، أو تحييدها على الأقل ، ضمانا للوجود الاستعمارى الاستيطانى الصليبى • حقا لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يقصد فيها الصليبيون غزو مصر ، أو ضمها للاملاك اللاتينية فى الشرق ، ولكن بينما كان هدف حملات أمالريك (عمورى) فى القرن الثانى عشر تهدف الى ضم مصر أو تحويلها الى دولة تابعة لمملكة بيت المقدس ، كان هدف الحملة الخامسة هو استرداد الشرف العسكرى والهيبة اللذين فقدهما الصليبيون فوق

تراب حطين · وكان فى ظن الصليبيين أن تحقيق انتصار ضخم على مصر سوف يضمن خضوعها ، ويجبرها على الدخول فى معاهدة سلام تشترط عودة المملكة الصليبية الى حدودها القديمة ·· ولكن الحملة انتهت بالفشل ، واضطر اللاتين الى التخلى عن أحلامهم ثمنا لحريتهم ·

وعلى الرغم من كل شىء تجمعت حملة جديدة بقيادة فردريك الثانى الذى كان يحمل لقب ملك بيت المقدس بعد زواجه من ايزابيلا ابنة حنـا برين · ولكن فردريك كان صقليا أولا وأخيرا ، وهو ما يعنى أن الاسلام بالنسبة له لم يكن مجرد كتاب مغلق ، فضلا عن أن المسلمين فى نظره لم يكونوا مجرد قوم من الكفار يستحقون الفناء · ولهـذا كانت تصرفاته ازاءهم تختلف عن تصرفات من سبقوه · وقد نجح فردريك ، بفضل المشـاكل التى كان السلطان الكامل الأيوبى يواجهها فى مصر والشام ، فى عقد اتفاقية مع هذا السلطان كان من أهم شروطها عودة القدس الى الصليبيين · ومن حسن حظ الصليبيين فى تلك الفترة أن تمزقت الجبهة العربية الاسلامية من جديد · ففى الوقت نفسه كانت طبول الحرب التترية يتردد صداها فى المنطقة ، وأخذت جحافل التتر الظالمة تطوى بلدان العالم الاسلامى فى الشرق ، واقتربت قعقعة حوافر الخيول التترية من منطقة الشرق العربى فى وقت تحالف فيه الصليبيون والأيوبيون فى دمشق ضد الأيوبيين فى مصر · واستعان المصريون بالخوارزمية الذين كانوا يبيعون سيوفهم لخدمة حكام الشرق الإسلامى بعد أن قضى المغول على دولتهم فى المناطق القريبة من البحر الأسود · وفى المعركة التى دارت بالقرب من غزة لقى اللاتين هزيمة قاسية على أيدى المصريين والخوارزميين · واستعاد السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدينة بيت المقدس سنة ١٢٤٤ م لتظل مدينة عربية حتى استولى عليها العدو الصهيونى فى العصر الحديث ·

كانت آخر حملة صليبية كبرى تلك التى قادها لويس التاسع ملك فرنسا ضد مصر سنة ١٢٤٨ م ٠ وانتهت بكارثة راح ضحيتها الجيش الصليبى عن بكرة أبيه ، وتم أسر الملك لويس نفسه فى دار ابن لقمان بالمنصورة ٠ واضطرت شراذم الصليبيين الى الرحيل لقاء فدية كبيرة لملكهم وأسراهم العديدين بلغت حوالى مليون قطعة ذهبية ٠ ومنذ ذلك الحين أصمت أوربا آذانها أمام كل نداء جاءها من الصليبيين فى الشرق طلبا للمساعدة ٠

وفى تلك الأثناء ولدت سلطنة المماليك فى مصر والشام لتكون القوة الضاربة المدافعة عن العالم الاسلامى ٠ وفى رأينا أن هذه السلطنة العسكرية الطابع كانت هى الأفراز السياسى الكبير للحروب الصليبية ٠ واذا كان البعض يعتبر أن « شجرة الدر » هى أول سلاطين المماليك ؛ فان الظاهر بيبرس البندقدارى كان هو المؤسس الحقيقى لهذه الدولة (١٦) ٠ فبعد القضاء على الخطر المغولى فى بلاد الشام أحاط المصريون ببقايا المستوطنات الصليبية من كل اتجاه ٠ ولم يعد بوسع أوربا أن تقدم شيئا لمساعدة المستوطنين الصليبيين فى المنطقة العربية ٠ ذلك أن مشكلات الحكم والاقتصاد والثقافة الأوربية امتصت طاقات الأوربيين ، وما تبقى من هذه الطاقة لمؤازرة الحركة الصليبية وجهته البابوية ضد أعدائها وخصومها السياسيين داخل القارة الأوربية نفسها (١٧) ٠ وأخذ

---

(١٦) عن ظروف نشأة دولة سلاطين المماليك وطبيعتها العسكرية انظر : قاسم عبده قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ــ عصر سلاطين المماليك (دار المعارف ١٩٧٩) ، ص ٩ ــ ٣١ ، جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الاسلامية (دار المعارف ١٩٦٧) ص ١٧١ ــ ١٧٥ ، سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام (الطبعة الثانية ، دار النهضة العربية ١٩٧٦) ، ص ١ ــ ٤٦ ٠

(١٧) عن تحول المثال الصليبى الى سلاح سياسى أستغلته البابوية لخدمة أغراضها ومحاربة أعدائها السياسيين فى أوربا (مثل الحملة ضد الالبيجنسيين ، والحملة ضد ملك أرغونة ، والحملات الصليبية ضد فردريك الثانى) ، انظر : Cantor, op. cit., PP. 330 — 331.

الوجـود الصليبي يتلاشى رويدا رويدا تحت وقـع الضربات الاسلامية ؛ فتم الاستيلاء على انطاكية سنة ١٢٨٦ م ، وطرابلس سنة ١٢٨٩ م ، ثم سقطت عكا آخر المعاقل الصليبية فى ١٨ مايو سنة ١٢٩١ م ، وفى أغسطس من العام نفسه هجر الفرسان الداوية قلعة الحج التى كانت أعظم القلاع الصليبية . وكان هذا هو فصل الختام بالنسبة للعدوان الصليبي الاستيطاني على الأرض العربية ، وان لم يكن نهاية للعدوان الذى استمر في أخريات العصور الوسطى انطلاقا من قواعد الصليبيين فى قبرص ورودس حتى قضى سلاطين المماليك عليهم فى القرن الخامس عشر .

هذه هى الخطوط العريضة للمواجهة المضنية بين شعوب المنطقة العربية والعدوان الصليبي . وقد انتهت هـذه المواجهـة الطويلة بانتصار العالم العربى فى تلك الحروب والمواجهة الحضارية والحقيقة أن الحوادث والأفكار المتداخلة المتشابكة التى أدت الى ميلاد الحركة الصليبية ، كظاهرة تاريخية ، وما طرحه المؤرخون من تفسيرات لأسباب هذه الحروب والعوامل والدوافع التى حركت أحداثها ، ثم ما نتج عن هذه الحروب من آثار تركت بصماتها على العالم العربى والغرب الأوربى .. هذه كلها تضع أمام المهتمين بتاريخ العلاقات الدولية مثلا فذا لدراسة الثوابت والمتغيرات فى العلاقات الدولية من ناحية ، كما تقدم لنا نموذجا فريدا لدراسة ظاهرة الاحتلال الاستيطاني وما يختص منها بمحاولة زرع كيان استيطاني عدواني فى محيط حضاري وبشري مختلف . ان دراسة الحركة الصليبية تكشف عن أهم مقومات النجاح لمثل هذا الكيان ، كما توضح من ناحية أخرى أهم عوامل الفشل والاخفاق . ذلك أن التفكك والتشرذم بين شعوب المنطقة يعتبر من أهـم عوامل النجاح ، والعكس صحيح تماما ، فالوحدة من أهم أسباب فشل الكيان الغريب . كما أن توازى مصالح الكيان الاستيطاني مع مصالح الظهير الحضاري والبشري المساند له عنصر آخر حاسم فى دعم

وجوده ، ثم تأتى عوامل أخرى مثل الاعتماد على القوة العسكرية الرادعة وامكانيات النمو الذاتى التى تلعب دورا غاية فى الضآلة بسبب طبيعة مثل هذا الكيان • ومع ذلك فان التغيرات الدائمة فى حركة العلاقات الدولية يمكن أن تؤدى الى عدم توازى مصالح كل من الكيان الاستيطانى والظهير المساند ، كما أن القوة العسكرية يزول تأثيرها باتحاد شعوب المنطقة مما يجعل قوتهم العسكرية أكثر تفوقا • أما امكانيات النمو الذاتى ، فأمر قد يبدو مستحيلا فى حالة عدم تحول شعوب المنطقة الى توابع اقتصادية للكيان الدخيل •

احتلت قصـــة الحروب الصليبية حيــزا كبيرا من اهتمامات المؤرخين والباحثين • ومنــذ بداية الحركة الصليبية حتى الآن ، ما تزال الدراسات لهذه الظواهر التاريخية تتوالى بكثرة وتنوع مثير • وقــد ســاهم المسلمون والمسيحيون واليهــود فى هــذه الدراســات • وبينما يبدو اهتمــام كل من المسلمين والمسيحيين بالموضوع منطقيــا ، يثير الموقف اليهودى من الحروب الصليبية عديدا من علامات الاستفهام • وهذا هو موضوع الفصل الثانى •

الفصل الثانى

الموقف اليهودى من الحروب الصليبية

مدخل ـ ابعاد الموقف اليهودى من الحروب الصليبية ـ حقيقة الاضطهادات الصليبية لليهود وعلاقتها بحركة معاداة السامية ـ محاولة سرقة التاريخ العربى ـ دراسة أسباب الفشل الصليبى ·

منذ بدأت أحداث الحروب الصليبية ، بدأ المؤرخون يكتبون عنها ، ولم يتوقفوا عن الكتابة حتى الآن · فقد انكب عشرات من المؤرخين والباحثين يفتشون بين غبار المعارك وأشلاء الضحايا ، وأنات الجرحى وزفرات المهزومين ·· بين صليل السيوف وصيحات النصر ، عن أجزاء الصورة التى يريدون استردادها من ذمة التاريخ · وأخرجت أقلام النساخين وآلات الطباعة سيلا من المؤلفات والدراسات تدور جميعها حول موضوع واحد هو « الحروب الصليبية » ·

لقد اهتم الغرب الاوربى والأمريكى بقصة هذه الحروب التى اتخذت الصليب شعارا ، والقدس هدفا · وفى ظل الشعار والهدف ارتكبت أبشع ما يمكن للبشر أن يتصوروه حتى بمقاييس العصور الوسطى التى اشتهرت بالقسوة وقلة الاهتمام بالجوانب الانسانية فى الحروب · وعلى الرغم من أن كثيرين فى الغرب قد أدانوا الحروب الصليبية ، فان هذه الادانة فى رأينا نابعة من حقيقة أن الحروب الصليبية فشلت فى أن تحقق شيئا على الرغم من أن فصولها الرئيسية قد دارت على مدى ما يقرب من قرنين

من الزمـــــان . ومع ذلك فــان بعض أولئك الباحثين يرى أن الأراضى التى استهدفتها الحروب الصليبية حق للمسيحيين ، وأن الصليبيين قد فشلوا فى استردادها . بيد أن هذا لا ينفى وجود بعض المؤرخين الذين جعلـــوا البحث العلمى والتعـــرف على الحقيقة ، أيا كانت ، هدفا ينبغى الوصول اليه .

أما فى المنطقة العربية الاسلامية ، فان الدراسات الحقيقية لهذه الحركة ما تزال قليلة حقا . وعلى الرغم من محاولات قليلة جيدة قام بها بعض الباحثين من أساتذة الجيل السابق ؛ فان محاولات جيلنا فى هذا الصدد ما تزال قاصرة عن الوفـــاء بما تتطلبه هذه الظاهرة من دراسة وتحليل . وعلى الرغم من أننا ، كطرف وقع عليه العدوان الصليبى ، ينبغى أن نوفى الظاهــرة حقها من الدراسة والتأمل العلمى ، فان معظـم المؤلفات العربية توقفت عند حد رواية الأحداث العســكرية والسياسية بطريقــة سردية ، كما لجأ البعض الى الدراسة الانتقائية بهدف دغدغة مشاعر الفخر والزهو الكاذبة فى نفوسنا .

وعلى الرغم من أن الحـــروب الصليبية كانت فى أســـاسها مواجهـــــة بين المسلمين والمسيحيين ، فان المؤرخين والباحثين اليهود قد اتخذوا لأنفسهم موقفا من الحروب الصليبية يمكــن القول بأنه موقف مختلف عن موقف كل من المسلمين والمسيحيين . فاليهود لم يكونوا طرفا أساسيا فى هــذه المواجهة العسكرية ــ الحضارية الطويلة ؛ ومن ثم فانه لا يمكن القول بأن لهم انحيازا الى جانب أحد الطرفين المتصارعين . بيد أن الموقف اليهودى من الحروب الصليبية يخدم الأهداف الصهيونية الأساسية من عــدة جوانب ؛ فهو تعبير عن الاتجـــاه الصهيونى العـــام الذى يخلق مجموعة من الأكاذيب التاريخية ويروج لها لتحقيق مكاسب جديدة للحركة الصهيونية . هذا الموقف اليهودى من الحروب الصليبية يتخذ مسارات أساسية ثلاثة :

أولا : محاولة تصوير الاضطهادات التى أوقعها الصليبيون باليهود فى أوربا الغربية على أنها حلقة ضمن سلسلة الظاهرة التى أطلقوا عليها معاداة السامية Antisemitism وهى ظاهرة اختلقوها وزوجوا لها ليبتزوا بها ضمير العالم ٠

ثانيا : محاولة سرقة التاريخ العربى فى فلسطين والمنطقة العربية من خلال اختلاق دور تاريخى لليهود فى التصدى للعدوان الصليبى بشكل يوحى أن اليهود أصحاب الأرض وأنهم تعرضوا للعدوان ودافعوا عن البلاد مثلما فعل العرب ؛ وهو أمر يحاولون به تأكيد حق اليهود التاريخى المزعوم فى الأرض العربية ٠

ثالثا : دراسة الكيان الصليبى ، مع التركيز على المشكلات الأساسية التى أدت الى فشله ككيان دخيل ، ودراسة امكانيات النجاح للكيان الصهيونى المشابه ، مع مراعاة الثوابت والمتغيرات فى الحركة التاريخية من ناحية ، والعلاقات الدولية من ناحية أخرى ٠

وبطبيعة الحال ، فان الموقف اليهودى من الحروب الصليبية لا يستمد تياره من هذه الروافد الأساسية الثلاثة فقط ، وانما هناك روافد أخرى أقل أهمية تصب فى التيار العام لهذا الموقف ٠ هذه الروافد تختلف بدرجة أو بأخرى بحسب الرؤية الشخصية والخلفية الثقافية الذاتية لكل من الذين تصدوا بالدراسة والبحث فى هذا الموضوع ؛ فهناك من يهتم ببعض الاسقاطات المعاصرة على الكيان الاسرائيلى فى مسائل الأمن والعلاقة بالدول المجاورة ، وهناك أيضامن يهتم بالترويج لبعض الأكاذيب التاريخية مثل عدم قدرة المصريين على القتال ٠ ومن يحاول النيل من أبطال التاريخ العربى الاسلامى فى فترة الحروب الصليبية بالتقليل من شأن عبقريتهم العسكرية والتاريخية ، مثلما تحدث البعض عن صلاح الدين الأيوبى ٠٠ هذه كلها وأمور أخرى فرعية هى التى

تميز باحثا يهوديا عن غيره ، بيد أنهم جميعا يصبون فى الروافد الثلاثة التى تصنع الموقف اليهودى العام من الحروب الصليبية :

وفيما يتعلق بالموضوع الأول ، أى الاضطهادات الصليبية ليهود أوربا ، فالواضح أن المؤرخين اليهود يفضلون عادة أن يناقشوا موقف الصليبيين من يهود أوربا فى اطار الموضوعات المتعلقة بتاريخ معاداة السامية (١) . وهنا ينبغى أن نناقش هذه المسألة لنتبين حقيقة هذه الاضطهادات الصليبية ليهود أوربا ابان أحداث الحركة الصليبية (٢) .

---

(١) انظر على سبيل المثال :

Leon Poliakov, The History of Antisemitism (trans. from French by : R. Howard) New York 1974; Alan Davies, Antisemitism and the Christian mind, New York 1969; Alexander M. Shapiro, «Jews and Christians in the Period of the Crusades — A commentary on the first Holocaust», Journal of Ecumenical Studies, Temple University 1972, vol. 9, PP. 725 — 749.

والحقيقة ان الظاهرة لا تقتصر على اليهود فقط ، وانما هناك بعض المؤلفين المسيحيين الذين كتبوا فصولا عن معاداة السامية خاصة بالموقف الصليبى من اليهود ، انظر :

J. Parkes, The Conflict of the Church and the Synagogue — A study in hte Origins of Antisemitism, Athenuem 1969.

انظر كذلك ما كتبه الدكتور محمد خليفة حسن فى كتاب عالم الصليبيين ، التعقيب ، ص ٢٤٧ وما بعدها .

(٢) عالج الباحث هذا الموضوع تفصيلا تحت عنوان « الاضطهادات الصليبية ليهود أوربا من خلال حولية يهودية : الظاهرة ومغزاها » ، انظر : ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط ، الموسم الأول ١٩٨١ ـ ١٩٨٢ (تحرير د. قاسم عبده قاسم ودكتور رأفت عبد الحميد) دار المعارف ١٩٨٢ م .

كانت المستعمرات اليهودية قد قامت منذ عـدة قرون على طول الطـرق التجارية فى غرب أوربا ، وكان سـكان هـذه المستعمرات من اليهـود السفارديم الذين نزح أجدادهم من عالم البحر المتوسط فى العصور الوسطى الباكرة • وكان هؤلاء على علاقة بأبنـاء دينهم القاطنين فى أرجـاء الامبراطورية البيزنطية والعالم الاسلامى مما أعانهم على القيام بدور هام فى التجارة العالمية فى تلك العصور حين تسببت الغزوات الجرمانية ، وتدهور اقتصاديات غرب أوربا فى اختفاء التجار من غير اليهود من هذه المناطق • ومن ناحية أخرى قام أولئك اليهـود بانشـاء بيوت لاقراض الأموال فى شتى أنحاء الغرب الأوربى ، والواقع أنهـا لم تكن أكثر من أماكن السكنى والاقامة التى عاش فيها المرابون اليهود • وكان الحكام العلمانيون ، وكبار الأساقفة ، والأساقفة يظللون هؤلاء اليهود بحمايتهم لقاء ما يقدمونه لهم من أموال •

ولكن الفلاحين والفقراء من سكان المدن الناشئة ، والذين تزايدت حاجتهم للمال بسبب التطور الاقتصادى فى غرب أوربا ، والذى جعل الاقتصاد النقدى يحل تدريجيا محل اقتصاد الخدمات الذى عرفته العصور الوسطى الباكرة ، كانوا يتورطون باطراد فى ديونهم للمرابين اليهود بالقدر الذى جعلهم يشعرون بالسخط تجـاه أولئك المرابين الذين كانوا يفرضون على عملائهم أرباحا باهظة ، وصلت أحيانا الى خمسين بالمائة من قيمة الدين • وخلال القرن الحادى عشر تصاعدت مشاعر العداء تجاه اليهود نظـرا لأن عدد من يقترضون المال منهم قد تزايدوا ، كما جاءت الحركة الصليبية وما صاحبها من تطرف دينى ، وهوس أخروى لتصب مزيدا من السخط على نيران الكراهية ضد اليهود (٣) • فقد كان

(٣) Runciman, S., A Hst. of the Crusades, (New York 1964), vol. I, PP. 134 — 135; Robert S. Lopez, The Commercial Revalution of the Middle Ages : 950 — 1350, (Cambridge University Press 1974), PP. 60 6—ـ Shapiro, op. cit., PP. 728 — 29.

تجهيز الفارس فى العصور الوسطى يتطلب نفقات كثيرة واذا لم يكن لديه الأرض أو الممتلكات التى يستطيع رهنها ، تعين عليه أن يقترض المال من اليهود بالربا • وحين بدأت الحركة الصليبية كان محتما أن يتحول انتباه الناس الى أولئك الذين عانى المسيح على أيديهم • فقد ظهر اتجاه يقول ان المسلمين هم العدو الحالى لأنهم يضطهدون أتباع المسيح ، ولكن اليهود أسوأ منهم لأنهم اضطهدوا المسيح نفسه • وأخيرا ، هبت العاصفة التى كانت نذرها قد بدأت تتجمع منذ اعلان اربان الثانى عن الحملة الصليبية في كليرمون ، وأطاحت رياحها العاتية بالجماعات اليهودية فى غرب أوربا •

ولسنا هنا بصدد التعرض لتفاصيل الاضطهادات الصليبية لليهود فى أوربا (٤) • ولكننا نحب أن نشير الى حقيقة أن هذه الاضطهادات لا يمكن أن تدخل في السياق العام لما يسمى بمعاداة السامية التى ابتدعها اليهود وروجوا لها لخدمة أهداف الحركة الصهيونية • فاذا كان التاريخ اليهودى قد شهد بعض حوادث العنف ضد الجماعات اليهودية فى المجتمعات التى عاشوا فى رحابها • فان كل حادثة كانت افرازا لظروف خاصة بالمجتمع والعصر الذى حدثت فيه ولا يمكن أن نضعها جميعا فى سياق

---

(٤) عن هذا الموضوع انظر :

Edward Peters (ed.), The First Grusade — The Chronicle of Flucher of Chartres and other source materials (Univ. of Pennsylvania Press, 1971), pp. 94 — 104.

حيث يورد رواية كل من ألبرت الايكسى Albert of Aix وايكهارد الاورى Ekkhard of Aura عن الاضطهادات التى نزلت باليهود اثناء حوادث الحملة الأولى • انظر ايضا :

Archives de l'Orient Latin, I, PP. 111 — 247; Shapiro, op. cit., PP. 370 — f., Runciman, op. cit., I, pp. 135 — 140.

وكذلك ، قاسم عبده قاسم « الاضطهادات الصليبية ليهود أوربا » •

واحد ، وتظل كل حادثة من هذه الحوادث قائمة بذاتها في اطار ظروفها التاريخية الخاصة ٠ فلا يمكن أن نضع الحوادث الناتجة عن التعصب الديني في إطار واحد مع الحوادث الناتجة عن التخلخل الاقتصادي أو الاضطراب السياسي مثلا ٠ ومن ثم فإن ما حدث أثناء فترة الحروب الصليبية - لا يمكن ربطه بما حدث لليهود في اسبانيا على يد القوط الغربيين (الفيزيقوط) من قبل ، أو بما حدث لهم نتيجة لأحداث الوباء الأسود Black Death من بعد ، كما أنه لا يمكن ربطه بما حدث لهم على أيدي الرومان في سنة ٧٠ ميلادية ، أو ما حدث لهم في المانيا النازية في القرن العشرين ٠ ولقد كانت الحروب الصليبية نفسها ميراثا تخلف عن القرن الحادي عشر بما ساده من هوس ديني وحماسة وتطرف نتجت عن موجة التدين بين صفوف العلمانيين وعن حركة الاصلاح الكنسي ؛ ومن ثم كان لابد للحركة أن تصب نيرانها على أعداء المسيحية في الداخل وفي الخارج ٠ ودليلنا في هذا أن الكتاب اليهود أنفسهم يعترفون بازدهار الجماعات اليهودية في أوربا طوال الفترة التي سبقت عصر الحروب الصليبية ، بغض النظر عما حدث في اسبانيا قبل الفتح الاسلامي ٠

ومن ناحية أخرى ، فإن الظروف الاجتماعية والاقتصادية المتغيرة في أوربا القرن الحادي عشر فرضت الاعتماد على المرابين اليهود الذين حرصوا على ارضاء الحكام وكبار الأساقفة حتى يمكنهم الانفراد بضحاياهم من الفقراء ٠ ولما كان المرابون في أي مجتمع محل كراهية الناس وحقدهم ، فإن الغطاء الديني الذي وفرته الحركة الصليبية للغضب ضد اليهود ، يسر لجموع الصليبيين الهائجة أن تنتقم لنفسها من المستغلين ٠ لقد أدت الحمى الأخروية التي ألهبت مشاعر من شاركوا في الحملة الشعبية الى تأجج نيران هذا الغضب بحيث جاءت مذابح سنة ١٠٩٦ م نهاية للعصر الذهبي ليهود شمال غرب أوربا ٠ وكانت كل حملة صليبية

تالية ترتكب مذابح مماثلة ضد اليهود بحيث عاشت الجماعات اليهودية بشكل مستمر فى ظل العزلة والخوف .

ولسنا نقصد هنا الدفاع عن سلوك الصليبيين تجاه يهود شمال غرب أوربا ، ولكننا نود أن نوضح أن هذه المذابح والاضطهادات التى جرت على اليهود آنذاك يمكن دراستها باعتبارها ظاهرة تاريخية قائمة بذاتها ؛ سواء من حيث الظروف التاريخية التى أفرزتها ، أو من حيث النتائج التى أدت اليها ، ولكننا لا نستطيع أن نوافق على المحاولة التعسفية لوضعها فى السياق العام لما يسمى بمعاداة السامية .

ومن الأمور المثيرة أن الحركة الصليبية قد استخدمت فى دعايتها القصص التى ذاعت عن الاضطهادات التى يلقاها مسيحيو الشرق على يد المسلمين ، وانطلق الدعاة والمبشرون يروجون لهذه القصص حتى تأججت نفوس المسيحيين بالرغبة فى قتل المسلمين ، ثم امتدت هذه النزعة العدوانية لتلحق باليهود باعتبارهم من أعداء المسيح والكنيسة . ثم جاءت الحركة الصهيونية لترتبط منذ بدايتها بالعمل الدعائى والحروب الاعلامية ؛ اذ قال هرتزل فى واحدة من خطبه الأولى : « علينا أن نخلق أكبر قسط من الضوضاء حول المشكلة اليهودية » (٥) . واذا كان استخدام الأدب وكتابة التاريخ احدى وسائل الدعاية السياسية للحركة الصهيونية ، فاننا يمكن أن نفهم حقيقة الموقف اليهودى من استغلال المذابح الصليبية ضد اليهود أثناء فترة الحروب الصليبية .

أما الموضوع الثانى ؛ وهو محاولة سرقة التاريخ العربى من خلال محاولة اختلاق دور تاريخى لليهود فى مواجهة الحركة

---

(٥) حامد عبد الله ربيع ، دراسات أساسية حول الصهيونية واسرائيل ، (سلسلة الثقافة الفلسطينية ـ دمشق ١٩٧٣ م) ، ص ١١ .

الصليبية على أرض فلسطين ، فهو أمر يتصل بالدعاية السياسية للحركة الصهيونية وحرصها على استخدام الأدب وكتابة التاريخ كأداة من أدوات الدعاية ، أو اثارة أكبر قدر ممكن من الضجة حول المشكلة اليهودية على حد تعبير هرتزل • فالمؤرخون اليهود يتحدثون عادة عن اليهود الذين قتلوا فى فلسطين دفاعا عن مدنهم وقراهم التى هاجمها الصليبيون ، ويركزون الحديث على يهود مدينة بيت المقدس • ولكن هذا القول مردود بعدد من الحقائق التاريخية الواضحة :

أول هذه الحقائق أن اليهود فى فلسطين عند قدوم الحملة الصليبية الأولى ، وقبلها بزمن طويل ، لم يكونوا يعيشون ضمن كيانات سياسية مستقلة • ولكنهم عاشوا فى رحاب العالم العربى الاسلامى باعتبارهم أقلية دينية يتمتعون بالحريات الدينية والاقتصادية والاجتماعية التى كفلتها لهم النظرية السياسية الاسلامية وتطبيقاتها التى تجعل من غير المسلمين « أهل ذمة » فى دار الاسلام تجب على المسلمين حمايتهم لقاء ضريبة الجزية التى هى فى حقيقة أمرها ضريبة دفاع على حد تعبيرنا المعاصر • ولأنهم لم يكونوا يعيشون فى كيان سياسى مستقل فانهم لم يكونوا يملكون الجيش أو الوسيلة العسكرية التى تمكنهم من التصدى للعدوان الصليبى •

كما أن القول بأن اليهود قد تصدوا لمقاومة العدوان الصليبى على المنطقة قول مردود لسبب بسيط هو أن الجيش فى الدول العربية الاسلامية ، التى عاشوا فى رحابها آنذاك ، كان يقوم على عقيدة الجهاد التى هى فرض على المسلمين وحدهم ، ومن ثم لم يكن ممكنا أن يلتحق غير المسلمين بالجيش الاسلامى • واذا كانت قد حدثتنا عن مساهمات فردية من جانب المسيحيين الشرقيين فى أعمال المساعدة العسكرية ضد الصليبيين ؛ فان هذه المصادر نفسها

لم تذكر لنا مثلا واحدا على قيام اليهود بمثل هذا العمل • ومن ناحية أخرى ، فان يهود ذلك الزمان لم يكونوا أهل قتال ، وهذه حقيقة على جانب كبير من الأهمية لا سيما اذا وضعنا فى اعتبارنا أن الجنود والمقاتلين المحترفين كانوا يتفرغون للحياة العسكرية طوال حياتهم نظرا لما كان القتال يتطلبه آنذاك من مهارات عالية •

ومن ناحية أخرى ، فانه من الثابت تاريخيا أن الحياة اليهودية داخل المناطق الصليبية قد ازدهرت ، وقد ذكر الرحالة اليهودى الاسبانى بنيامين النطيلى ، الذى زار المنطقة زمن نور الدين محمود ، معلومات طيبة عن أعداد اليهود فى فلسطين زمن الحروب الصليبية وعن الحرف التى كانوا يشتغلون بها • ومن خلال الأعداد الضئيلة التى ذكرها هذا الرحالة اليهودى ومن خلال حرف اليهود التى ذكرها نستطيع أن ندرك بسهولة أنهم لم يكونوا مؤهلين للقيام بهذا الدور الذى تحاول الدعاية الصهيونية اختلاقه لهم • وتكشف كلمات بنيامين النطيلى والمقارنة بين أعداء اليهود فى المناطق الاسلامية عن أن اليهود فى المناطق الاسلامية كانوا أكثر عددا ، كما كانت مهنهم أكثر رقيا (٦) ، ولكن أعدادهم كانت هزيلة بالقدر الذى يجعلنا نرفض قبول مثل هذا التزييف للواقع التاريخى •

---

(٦) ذكر بنيامين النطيلى مثلا أن عدد اليهود فى انطاكية كانوا حوالى عشرة يشتغلون بصناعة الزجاج (P. 58) كما ذكر أن عدد اليهود فى اللاذقية مائتين (P. 59). وفى جبيل ١٥٠ يهوديا (P. 61)، وفى صيدا حوالى عشرين ، وفى بيروت حوالى خمسين (P.61) وفى صور حوالى ٤٠٠ يهودى من أصحاب السفن وصناعة الزجاج (PP. 62 — 63) وفى عكا عاش ما يقرب من مائتى يهودى ، وفى بيت لحم اثنا عشر يهوديا يشتغلون بالصباغة (P. 75)، والرملة ثلاثة يهود فقط هى وبيت جبريل (PP. 77 — 79) انظر :

The itinerary of Rabbi Bengamin of Tudela, Translated and edited by : A. Asher, 2 vols. London 1840.

ومن اللافت للنظر أيضا أن حركة المقاومة التى بدأها المسلمون ضد الصليبيين لم تجتذب انتباه اليهود فى المنطقة العربية ، ولم يقوموا بأى دور ملحوظ فى الصراع السياسى / العسكرى الذى دار آنذاك بين المسلمين والمستوطنين اللاتين طوال ما يقرب من مائتى سنة ، وهو أمر يتمشى مع حقيقة حجمهم العددى، ووضعيتهم الاجتماعية فى البلدان العربية والمناطق الصليبية على حد سواء • حقا لم تفرق سيوف الصليبيين بين المسلمين واليهود فى مجزرة بيت المقدس ؛ فقد كانت النظرة الصليبية الدينية تجاه الفريقين واحدة تقريبا • لقد قامت الفكرة الصليبية على أساس تكفير المسلمين واليهود باعتبارهم أعداء للمسيحية • وعلى هذا الأساس منع الصليبيون المسلمين واليهود من دخول بيت المقدس ، ويجب تطهير الأماكن التى شهدت تجسده ومعاناته وآلامه من أولئك الذين تسببوا فى آلامه (اليهود) وأولئك الذين يضطهدون أتباعه (المسلمين) • هذه النظرة هى التى حكمت تصرفات اللاتين فى المنطقة العربية تجاه المسلمين واليهود ، ولكن بينما تصدى المسلمون لمقاومة الوجود الصليبى بشكل ايجابى ، كان الموقف اليهودى سلبيا تماما • هذا الدور السلبى لليهود فى اطار النظرة الصليبية الموحدة تجاههم هم والمسلمين لا يعطى للمؤرخين اليهود الحق فى المساواة بين دور العرب المسلمين ودور اليهود فى الصراع ضد الصليبيين • ذلك أن مثل هذا الموقف يغفل تماما السلبية التى اتسم بها الموقف اليهودى منذ بداية الحركة الصليبية حيث قبلت الجماعات اليهودية الاضطهاد الذى حل بها فى أوربا ، ولم تفعل شيئا سوى الانتحار الجماعى ، كما أن الجماعات اليهودية فى فلسطين لم تكن تملك سوى أن تستسلم لمصيرها على أيدى الصليبيين •

وفى تصورنا أن هذا الموقف السلبى ناتج عن تشابه وضع الأقليات اليهودية فى كل من أوربا والمنطقة العربية ؛ حقيقة أن يهود المنطقة العربية قد عاشوا حياة أكثر أمنا ، وتحركوا بحرية

أكثر ، وتقلدوا المناصب ولعبوا دورا أكبر فى حياة المجتمع ، ولكنهم ظلوا يتصرفون بعقلية الأقلية الغريبة التى لا تريد لنفسها التورط فى الدفاع عن شىء لا تملكه • ولذلك كانت المقاومة السلبية من جانب الجماعات اليهودية فى حوض الراين أشبه باستسلام الأقلية اليهودية فى فلسطين • لقد اقتصر دور الجماعات اليهودية على ارسال رسائل التحذير من الصليبيين لرفاق دينهم وعلى طقوس الانتحار الجماعى • ولكن هذه المقاومة السلبية لم تكن لتوقف المد الصليبى فى أرض الشرق العربى ، أو تساعد على تغيير مجريات الأحداث • ومن الأمور ذات الدلالة أن الحى اليهودى فى مدينة بيت المقدس كان هو نقطة الضعف التى استفاد منها الصليبيون فى حصارهم للمدينة ، ومنها شقوا طريقهم الى داخل المدينة المقدسة •

هكذا ، اذن ، لا يمكننا أن نوافق على أن اليهود قد لعبوا دورا مساويا لدور العرب المسلمين فى التصدى للغزو الصليبى • وهو أمر نراه طبيعيا ، لأن العرب هم أصحاب البلاد ، وقد جعلهم الغزو يتحولون فى بعض المناطق من حكام الى محكومين ، ومن أكثرية الى أقلية ؛ لذلك كان لابد لهم من التصدى لهذه الحركة • وقد ظل العرب على مقاومتهم العنيدة قرابة قرنين من الزمان حتى تم لهم طرد الصليبيين واسترداد بلادهم • وهو أمر يختلف تماما عن نظرة الأقلية اليهودية التى كانت أعدادها قليلة ، كما تركز نشاط أفرادها فى بعض المهن المالية والصناعية ولم يكن يزعجها فى استبدال حاكم بآخر ، سوى احتمال أن يكون الحاكم الجديد أقل تسامحا من الحاكم السابق • لقد كان المال هو خط الدفاع الحقيقى الذى يستخدمه اليهود ، واذ فشل هذا السلاح فى مواجهة الصليبيين تجرد اليهود من كل سلاح •

وعلى أية حال ، فان محاولة سرقة التاريخ العربى وانتحال دور ايجابى لليهود أثناء فترة الحروب الصليبية ليس بالأمر الجديد

أو التغريب على الاتجاه الفكرى للحركة الدعائية الصهيونية • ذلك أن كتاب الأدب والتاريخ اليهود منذ القرن التاسع عشر راحوا يعيدون كتابة التاريخ ، ولم يقف الأمر بهم عند مجرد تسجيل الوقائع من وجهة نظرهم ، بل وصل بهم الأمر الى القيام بعملية تشويه منظمة للتاريخ العربى • ولم تقتصر حركة التأليف اليهودى على الدفاع من جانب والتشويه من جانب آخر ، وانما أخذت لنفسها بعدا ثالثا يحاول ايجاد عملية ربط وتتابع بين الحضارة اليهودية والحضارة المسيحية • هذه الحركة التى كانت تهدف الى احياء ما يسمى بالوعى القومى اليهودى ، والدفاع عن الطابع القومى اليهودى على الرغم مما هو معروف من أن الجماعات اليهودية فى شتى أنحاء العالم لم تكن تملك لغتها القومية الخاصة ، وانما كانت تستخدم لغة المجتمع الذى تعيش فى رحابه أو خليطا من تلك اللغة مع بعض الكلمات والمصطلحات العبرية (٧) • وبعد نجاح الحركة الصهيونية فى سرقة الوطن الفلسطينى وزرع الكيان الاسرائيلى عليه ، بدأ الاسرائيليون يحاولون سرقة التاريخ والتراث العربى • بل ان المشكلة تعدت حدود البحوث والدراسات التى يمكن الرد عليها وتفنيدها • لقد سرق الصهاينة الوطن الفلسطينى وراحوا يختلقون لأنفسهم وجودا تاريخيا على الأرض العربية ، وامتدت أيديهم تسرق التراث والفن والتقاليد العربية وتنسبها الى الاسرائيليين • فهناك على سبيل المثال مركز اسرائيلى للدراسات والبحوث الفولكلورية تابع للجامعة العبرية فى القدس ، وهو يهتم بجمع وتسجيل ما يسمى « بالتراث الفولكلورى الاسرائيلى » ، ولهذا المركز أرشيف يضم آلاف النصوص الشعبية •• وهو أمر يثير الدهشة والتساؤل ، على حد تعبير أحد الباحثين « ••• فكيف يمكن أن يوجد ما يسمى بالفولكلور الاسرائيلى ، ولم يكن هناك قبل سنة ١٩٤٨ شعب اسمه الشعب الاسرائيلى ، ولم تكن هناك دولة اسمها

---

(٧) حامد ربيع ، دراسات أساسية حول الصهيونية واسرائيل ، ص ١٦ ـ ١٨ •

اسرائيل • ذلك أن الحقيقة العلمية تفترض أنه لكى يكون لشعب من الشعوب تراث من أى نوع ، لابد أن يكون هناك شعب ، وأن يكون لهذا الشعب وطن يعيش فيه ، ولغة يستطيع أن يبدع فيها ، وأن يعبر بها عن نفسه • ومن الثابت تاريخيا أن ذلك لم يحدث « فالأدب العبرى » ـ مثلا ـ مصطلح يطلق على أدب لم يدون فى وطن بعينه أو لغة بعينها ، بل فى مختلف دول الشرق والغرب ، قديما وحديثا ، والقليل منه هو الذى وصلنا فى العبرية سواء قبل الميلاد أو بعده ••• » (٨) •

وما يقال عن اللغة العبرية يقال أيضا عن « الشعب الاسرائيلى » الذى يتكون من جماعات تنتسب الى قوميات مختلفة ، وثقافات متعددة ، ومراحل حضارية متفاوتة ، ولا يجمع بينها سوى الدين اليهودى الذى لا يمكن أن يكون وحده أساسا لقيام الأمة • واذا سلمنا بوجود تراث شعبى دينى لليهود ، فاننا لا يمكن أن نوافق على أنه كان لليهود تراث شعبى علمانى واحد منفصل عن تراث الشعوب التى عاشوا بين ظهرانيها • وعلى أية حال فان اليهود يبذلون جهدا كبيرا من أجل ايجاد ذاتية لهم ، وتراث أو ثقافة واحدة تجمعهم • وهم فى هذا السبيل يسرقون التراث العلبى وينسبونه لأنفسهم • وبين يدى العالم الآن آلاف الدراسات عما يسمى بالفولكلور اليهودى ، والميثولوجيا اليهودية ، والعادات والتقاليد والاحتفالات اليهودية وغيرها مما ينسبونه الى اسرائيل والشعب الاسرائيلى (٩) •

---

(٨) احمد على مرسى ، وفاروق محمد جودى ، الفلكلور والاسرائيليات (دار المعارف) ، ص ٨ ـ ١٢ •

(٩) احمد مرسى ، المرجع السابق ص ١٠ ، وانظر القائمة البيبليوجرافية عن بعض الدراسات فى الفولكلور العربى اليهودى والتى اعدها الدكتور احمد مرسى فى نفس الكتاب ، ص ١٤٥ ـ ١٦٨ •

بل انهم راحوا يطرحون فى الأسواق العالمية ، لا سيما فى أوربا وأمريكا ، الملابس العربية المطرزة ، والحلى والجواهر ، والمشغولات المعدنية العربية ، فضلا عن أصناف الحلوى العربية ويدعون انها جميعا نتاج التراث الشعبى اليهودى أو الاسرائيلى · وتكتمل جوانب المخطط اليهودى لسرقة التاريخ والتراث العربى بالرقصات والأغنيات الشعبية العربية التى يقدمونها للعالم باعتبارها فنونا اسرائيلية ·

وتأتى سرقة الآثار العربية من المناطق التى يحتلها الاسرائيليون لتكون برهانا ماديا على جريمة سرقة التاريخ العربى التى يريدون بها تدعيم سرقتهم للوطن الفلسطينى : فقد اشتهر عدد كبير من قادة الكيان الصهيونى بالتنقيب عن الآثار ، وقد سرقوا كثيرا من الآثار من فلسطين والأردن وسوريا وسيناء ، كما أنهم نشطوا تماما أثناء الغزو الاسرائيلى الأخير للبنان فى سرقة الآثار بشكل يهدد السمعة التى تتمتع بها المنطقة العربية فى هذا المجال · والمشكلة أفدح وأخطر من أن نغض الطرف عنها ، فقد يأتى يوم ينظر فيه العالم الى المنطقة العربية على أنها تعيش عالة من الناحية الحضارية على تراث اسرائيل وإبداع الشعب الاسرائيلى المستمر المتواصل عبر الزمان والمكان · وهم لا يدخرون وسعا فى هذا السبيل · وموقفهم من الحروب الصليبية ومحاولة اختلاق دور ايجابى ليهود العالم العربى فى مواجهتها جانب من جوانب هذه المحاولة التى يجب التصدى لها بالعقل والعلم والصبر ·

أما الموضوع الثالث فى الموقف اليهودى من الحركة الصليبية ، فهو نابع من ادراكهم لحقيقة الوظيفة الحضارية للتاريخ كعلم · فهم يدرسون تاريخ الحركة الصليبية مع التركيز على الوجود اللاتينى فوق أرض فلسطين ، وطبيعة علاقات الصليبيين بشعوب المنطقة ، وعوامل النجاح التى حققت لهم الانتصارات الأولية ، ثم

عوامل الفشل والاخفاق التى أدت الى رحيل الصليبيين من المنطقة العربية ونهاية دولتهم • واذا كنا نؤمن ايمانا قاطعا بأن التاريخ لا يعيد نفسه فاننا ندرك أيضا أن الظروف التاريخية المتشابهة يمكن أن تؤدى أيضا الى نتائج متشابهة وليست متماثلة • ومع تسليمنا بوجود الكثير من أوجه الخلاف بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية من ناحية ، وبين الكيان الصليبى والكيان الاسرائيلى من ناحية أخرى ، فان هناك جوانب أساسية للتشابه بينهما ؛ فكلتا الحركتين استعمارية استيطانية تسربلت برداء الدين ، وارتكزت على مفهوم الخلاص • وكل من مملكة بيت المقدس اللاتينية واسرائيل كيان غريب ، يضم مجموعات بشرية متفاوتة الثقافات والدرجات الحضارية ، زرع فى أرض عربية اللسان ، اسلامية الثقافة ، شرقية السمات • كما أن الصليبيين والصهاينة يشتركون فى الاعتماد على مساندة ظهير من خارج المنطقة ، كان هو الغرب الأوربى في كلتا الحالتين • فضلا عن جوانب أخرى تشابه فيها الصليبيون والاسرائيليون ، منها الطابع العسكرى للمجتمع ، وتوظيف كافة موارد هذا المجتمع من أجل الحرب ، ومنها العنصرية التى تختفى خلف ستار الدين •• وما الى ذلك •

***

هذا التشابه هو الذى يغرى الكثيرين من الدارسين اليهود بدراسة تاريخ الحركة الصليبية وتسخير نتائج دراساتهم فى دراسة مستقبل الكيان الصهيونى • ولا شك فى أن المتغيرات فى تاريخ العلاقات الدولية قد أوجدت عوامل جديدة لم تكن قائمة فى العصور الوسطى، بيد أن هذا لم يمنع من دراسة التاريخ، لا سيما وان المسرح الذى شهد كلا من الحركة الصليبية والحركة الصهيونية واحد ، كما أن الشعب العربى هو الذى تصدى للعدوان الصليبى بالأمس وعليه أن يتصدى للعدوان الصهيونى اليوم • ويجدر بنا فى هذا المقام أن نشير الى أن مثل هذه الدراسة لم يكن وقفا على الباحثين اليهود وحدهم ، فقد اهتم كثيرون من الباحثين المسلمين والمسيحيين برصد

عوامل الفشل التى قضت على الوجود الصليبى فى المنطقة العربية قبل حوالى سبعمائة سنة ٠

هذه ، بشكل عام ، هى المسارات الأساسية الثلاثة للموقف اليهودى من الحروب الصليبية ٠ فاذا انتقلنا الى دراسة الموقف الاسرائيلى لوجدناه يتوازى مع الموقف اليهودى العام ، وان خرجت منه مسارات فرعية تفرضها طبيعة الكيان الاسرائيلى ومن يعيشون فى نطاقه ؛ فمشكلة الأمن ، والحدود الطبيعية ، وما تستوجبه من بناء طرق سريعة واقامة جيش قادر خفيف الحركة ٠ ومحاولات تزييف الوعى بطبيعة الشعوب العربية المتصارعة مع اسرائيل ، والاسقاطات المعاصرة على تاريخ الحركة الصليبية ، ومحاولة النيل من أبطال التاريخ العربى ورموز الجهاد فيه ٠٠ كلها روافد تتضافر مع المسارات الثلاثة الأساسية لتخلق ما يمكن أن نسميه بالرؤية الاسرائيلية للحروب الصليبية ٠ وهذا هو موضوع الفصل الثالث ٠

الفصل الثالث

رؤية اسرائيلية للحروب الصليبية

يوشع براور ومؤلفاته ـ كتاب عالم الصليبيين وأهميته ـ فكرة الأرض الموعودة ـ مذابح اليهود ومعاداة السامية ـ مفهوم الأمن والحدود الطبيعية ـ سرقة التاريخ ـ مشكلة الاستيطان والموارد البشرية ـ الغربة الحضارية ـ الطابع العسكرى للكيان الصليبى ـ تغير العلاقات الدولية ـ ملاحظات أخيرة ·

اخترنا المؤرخ الاسرائيلى المعاصر « يوشع براور » ليكون نافذتنا التى نطل منها على الموقف الاسرائيلى من الحروب الصليبية · وبطبيعة الحال فنحن لا ندعى أن هذا المؤرخ يمثل الاسرائيليين جميعا فى هذا الموضوع ، ولكننا نعتقد أنه يمكن أن يجسد رؤية كثير من الاسرائيليين المعاصرين فى عدة نقاط أساسية ، كما أن كتاباته تعكس كثيرا من المفاهيم والأفكار التى يرددها الصهاينة المعاصرون ، وكتاباته مليئة بالاسقاطات المعاصرة التى تجعل منه نموذجا فذا لدراسة الموقف الاسرائيلى من الحروب الصليبية ·

والأستاذ يوشع براور هو أستاذ تاريخ العصور الوسطى فى الجامعة العبرية بالقدس (١) ، وهو صاحب اسم مشهور لامع

---

(١) كان هذا هو آخر منصب نعرف انه تولاه حتى سنة ١٩٧٢ م ، وليست لدينا معلومات أخرى عن وظيفته الحالية ، كما اننا لا نعلم اذا كان ما يزال على قيد الحياة أم لا ·

بين المتخصصين فى دراسة تاريخ الحركة الصليبية ، والحقيقة أنه باحث ممتـاز متمكـن من أدوات البحث ، كما أن أسلوبه يتميز بالسلاسة والدقة فى التعبير ، وهو أيضا على معرفة ودراية واسعة بمصادر تاريخ الحروب الصليبية والدراسات الحديثة التى صدرت عنها • وليوشع براور عدة دراسات وبحوث عن الحركة الصليبية استطعنا أن نحصى منها ما يلى :

١ ــ كتاب من مجلدين عن تاريخ مملكة بيت المقدس اللاتينية ألفه بالعبرية ، وصدرت له ترجمتان ؛ احداهما باللغة الفرنسية (٢) والأخرى باللغة الانجليزية (٣) •

٢ ــ كتاب ألفه باللغة الانجليزية بعنوان
The World of the Gusdaers (٤)

وهو الكتاب الذى اخترناه محورا لهذه الدراسة •

— «The Assise de Teneure and the Assise de Venet — A study if landed property in the Latin Kingdom», Economic History Review, Ser. 2, iv (1951).

— «Colonisation activities in the Latin Kingdom of Jerusalem», Revue Belge de philologie et d'histoire, XXIX (1951).

---

(٢) J. Prawer, Histoire du Royaume Latin de Jérusalem, de l'hébreu par G. Nahon, revee et complété par l'auteur, 2 Toms., Paris 1969.

(٣) لم أستطع الحصول على الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب •

(٤) J. Prawer, Ihe World of the Crusaders, New York and Jerusalem 1972.

وقد صدرت ترجمة عربية لهذا الكتاب مع تقديم وتعقيب على مضمونه ، أنظر : يوشع براور ، عالم الصليبيين (ترجمة وتقديم وتعقيب قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن) ، دار المعارف ١٩٨١ م •

— «L'établissement des coutumes du marché à Saint-Jean d'Acre et la date de composition du Livre des Assises des Bourgeois»,
RHDFE, Sér. 4, XXIX (1951).
— «Etude du quelques problées agraires et sociaux d'une seigneurie Croiste au XIII e siécle», Byzantium, XXII — XXIII (1952 — 1953).
— «Etudes préliminaire sur les sources et la composition du Livre des Assises des Bourgeois», RHDFE, sér. 4, XXXII (1954).
— «Les premiers temps de la feodalitée du royanme Latin de Jérusalem», La Moyen Age, IXV (1959).
— « Etude sur le droit des Assises de Jérusalem », RHDFE, ser. 4; XXXIX — XI (1961 — 2).
— «Estates, Communities and the constitution of the Latin Kingdom», Proceedings of the Israel Academy of sinces and Humanities, II (1966).
— « The settlement of the Latins in Jersualem », Speculum, XXVII.

— J. Prawer and Benvenisti, M. « Crusader Palestine», sheet 12/IX of the Atlas of Israel (Jerusalem 1960).

هذه الدراسات التى استطعنا حصرها ليوشع براور تؤكد على اهتمامه بالجوانب الاستيطانية فى تاريخ الحركة الصليبية ؛ فهو يهتم بموضوع حيازة الأرض التى يعالجها فى أكثر من خمس دراسات ، كما يهتم فى دراساته عموما بالنشاط الاستعمارى الصليبيين ومشاكل الاستيطان والموارد البشرية للمملكة اللاتينية ، فضلا عن اهتمامه الواضح بالمقومات الاقتصادية والاجتماعية للوجود الصليبى فى المنطقة العربية • أما كتاباه اللذان أشرنا اليهما ، فأولهما (مملكة بيت المقدس اللاتينية) عبارة عن استعراض

شامل ، فى مجلدين ، لتاريخ مملكة بيت المقدس منذ بداية الحركة الصليبية فى أخريات القرن الحادى عشر وحتى نهاية الوجود الصليبى على الأرض العربية فى نهاية القرن الثالث عشر • والكتاب عبارة عن استعراض ودراسة وافية لكافة الجوانب العسكرية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية للمملكة الصليبية ؛ وهو يمتاز باعتماده على طائفة كبيرة ومتنوعة من المصادر الأصلية والدراسات الحديثة عن الحركة الصليبية •

أما كتابه الثانى (عالم الصليبيين) ، فهو الذى اخترناه محورا لهذه الدراسة ، وذلك لسببين رئيسيين :

أولهما أنه كتب باللغة الانجليزية ونشر فى نيويورك والقدس فى وقت واحد بقصد مخاطبة عامة المثقفين من قراء الانجليزية ، وهم كثرة كثيرة • وقد وضع الكتاب فى لغة سهلة سلسلة وأسلوب جذاب بحيث يمكن توجيه الدعاية المطلوبة من خلال موضوع ما يزال يحظى باقبال الناس فى الغرب بسبب التراكمات الاسطورية التى نسجت حول الحروب الصليبية (٥) •

والسبب الثانى هو أن هذا الكتاب دراسة متكاملة للكيان الصليبى على أرض فلسطين ، وهو متحرر من القيود الأكاديمية بشكل أتاح للمؤلف أن يزرع بين طياته بعض المزاعم التى لا تجد لنفسها سندا من حقائق التاريخ ، ولكنها تخدم الحركة الدعائية للصهيونية •

وكتاب « عالم الصليبيين » مؤلف من تسعة فصول وخاتمة ، ويقع فى مائة وستين صفحة من القطع المتوسط ، وهو مزود بمجموعة كبيرة من الخرائط والصور التوضيحية التى تجعل من الكتاب متعة حقيقية لعامة المثقفين الذين يقرأون اللغة الانجليزية •

---

(٥) أنظر ما تذكره المؤلف فى هذا الصدد

— The World of the Gusades, p. 155

ومن الأمور ذات الدلالة أن الكتاب يبدأ بفصل يحمل عنوانا معبرا عن موقف المؤلف من قضية الأماكن المقدسة ، وهو : « ثلاث امبراطوريات وأربع دعاوى » ، ونصه الانجليزى «Three empires and four claims» ويزداد الموقف وضوحا عندما نقرأ الآيتين اللتين صدر بهما يوشع براور كتابه من سفر التكوين ، اذ تقول كلماتهما : « وقال الله ليعقوب أنا الله القدير أثمر وأكثر أمة وجماعة أمم تكون منك ، وملوك سيخرجون من صلبك ، والأرض التى أعطيت ابراهيم واسحق ، لك أعطيها ، ولنسلك من بعدك على الأرض » (٦) ٠

ويرتب يوشع براور الفصل الأول من كتابه على أساس أن « ٠٠٠ أقدار البلاد والأمم والديانات والامبراطوريات ظلت ، على مدى ثلاثة آلاف عام ، مرتبطة بالوعد العظيم المدون فى الكتب المقدسة » (٧) ٠ وهو ما يعنى ، فى رأيه ، أن الصراع حول الأرض المقدسة عبر العصور كان صراعا بين أصحاب الديانات الثلاث ، ولأسباب دينية خالصة ٠ فهو يقول ان مفهوم الأرض الموعودة قد صار عقيدة أساسية فى الديانة الاسرائيلية ومحورا لآمالها فى الزمن الغابر ، ثم يذهب الى القول بأن هذا المفهوم قد صار جزءا أساسيا فى جميع الثقافات التى قبلت الكتب المقدسة اليهودية ، أو ارتبطت بالديانة اليهودية على نحو ما (٨) ٠

---

(٦) تكوين ، ٣٥ : ١١ ـ ١٢ ٠

(٧) P. 9

(٨) فى رأينا أن محاولة يوشع براور فى هذا السبيل تنسجم مع تيار عام يحاول ربط الصهيونية بالتاريخ اليهودى ، ويهدف الى اعادة تفسير التاريخ اليهودى ليناسب فكرة الصهيونية ٠ فقد قام كثيرون من المؤرخين اليهود بتفسير أحداث التاريخ اليهودى بطريقة تجعل من ظهور الصهيونية ضرورة تاريخية ، بل وتجعل التاريخ اليهودى كله مقدمة للصهيونية ومقدمة لظهورها ، انظر : محمد خليفة حسن ، الحركة الصهيونية : طبيعتها وعلاقتها بالتراث الدينى اليهودى ، (دار المعارف ١٩٨١) ، ص ١٣ ـ ١٤ ٠

واذا كنا لا نفهم ما يقصده براور بـ « جميع الثقافات التى قبلت الكتب المقدسة اليهودية » فانه أشار الى أن الديانة المسيحية قد حملت الكتب المقدسة اليهودية الى روما عاصمة الامبراطورية الوثنية ٠ وهو يشير الى أن روايات الكتاب المقدس التاريخية عن بيت المقدس ، وبيت لحم ، والناصرة ، وجبل الزيتون ٠٠ وغيرها ، جعلت هذه اماكن تستقر فى وجدان العالم المسيحى عامة لأنها ارتبطت بقصة الاله الذى تجسد على الأرض بشرا (المسيح) ٠ ثم يشير المؤلف الى حركة الفتوح الاسلامية فى القرن السابع ، وما نتج عنها من ضم الأماكن المقدسة لتصبح جزءا من قلب العالم العربى الاسلامى ، وكيف أن الامبراطورية البيزنطية تقلصت بحيث كادت تختفى فى طيات موجات الطوفان الاسلامى ٠

وهنا يؤكد موقفه مرة أخرى حين يقول ان مزاعم الامبراطورية البيزنطية فى الأرض المقدسة كانت قائمة على أساس من قوة التاريخ وحق الدين (٩) ٠ والحقيقة أننا لا نستطيع أن نوافق براور على هذا الموقف ؛ فلم يكن ثمة حق تاريخى للروم فى هذه المنطقة التى شهدت حضارات أقدم وأعرق كثيراً من الحضارة الرومانية ووريثتها البيزنطية ؛ فضلا عن أن ما يذكره عن حق الدين مردود بحقيقة أن الخلافات المذهبية بين سكان هذه المناطق والامبراطورية البيزنطية كانت عنيفة ومستمرة قبل الفتح الاسلامى (١٠) ٠

ثم ينتقل المؤلف الى الحديث عن التطورات التى أدت الى قيام الحركة الصليبية فى أوربا ثم قيام الحملة الأولى ٠ ويعلق

---

(٩) P.P.

(١٠) عن هذا الموضوع أنظر : ج٠م٠ هسى ، العالم البيزنطى (ترجمة وتقديم وتعليق رأفت عبد الحميد) ، دار المعارف ١٩٨٢ ، ص ١٠٥ وما بعدها ٠

على ذلك بقوله : ان المزاعم المسيحية فى الأرض المقدسة ؛ سواء تلك التى يمثلها البابا أو الامبراطور فى الشرق أو فى الغرب ، كانت تقابلها على الناحية الأخرى المطالب الاسلامية التى يدعمها الحكم الاسلامى الواقع . وهو هنا يدعى أن الاسلام قد أخذ عن المسيحية واليهودية ، ويخلص الى أن هذا هو السبب فى انقاذ الأماكن المقدسة في فلسطين من الدمار الشامل على أيدى المسلمين (١١) .

وعلى الرغم من أن القول بأن الاسلام قد أخذ عن اليهودية والمسيحية ينطوى على كثير من المغالطات الفادحة ، فان هدف المؤلف أن يؤكد أن اليهودية هى الأساس الثقافى فى المنطقة . وهو أمر يتسق مع مسار الدعاية الصهيونية التى تحاول سرقة تاريخ المنطقة وانتحاله للاسرائيليين بحيث تبدو الشعوب الغربية عالة حضارية عليهم وعلى منجزاتهم ، وقد ذكر براور هذا صراحة فى صدر هذا الفصل كما ذكرنا . ومن ناحية أخرى ، فان القول بأن السبب في عدم تدمير المسلمين للاماكن المقدسة راجع الى الأصول اليهودية والمسيحية فى الاسلام يحمل تهمة غير مباشرة (وغير صحيحة أيضا) ضد المسلمين ويصمهم بأنهم غزاة مخربون . ولكن حقائق التاريخ تقف بالمرصاد لمثل هذا القول الذى ردده المؤرخون الديريون فى الغرب الكاثوليكى طويلا ؛ فقد تم منذ زمن بعيد دحض الأسطورة التى تزعم أن العرب اندفعوا بالسيف فى يد والقرآن في اليد الأخرى يخيرون شعوب البحر المتوسط بين اعتناق الاسلام أو الموت (١٢) . فالواقع أن المسلمين لم يدمروا أى بلد

---

(١١) P. 11.

(١٢) أنظر حول هذا الموضوع : نورمان كانتور ، التاريخ الوسيط (ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم) ، دار المعارف ١٩٨١ ، جـ ١ ص ٢٣٢ _ ٢٥٦ .

فتحوه ، سواء كانت أماكن مقدسة أم لا ، وشادوا حضارة عالمية عاش العالم فى ظلها قرونا طويلة ·

ولكن يوشع براور لا يلبث أن يتحدث عن أن للقدس أهمية وقداسة خاصة لدى المسلمين بسبب ارتباطها بقصة الاسراء والمعراج ، وكيف أنها صارت مزارا يحج اليه بعض المسلمين بسبب الظروف السياسية التى سادت العالم الاسلامى فى القرن الهجرى الثانى (الثامن الميلادى) ·

وهكذا يصل براور الى أن المدينة المقدسة قد احتلت مكانة هامة لدى أصحاب الديانات الثلاث ، وان كان يحاول أن يربط أصل هذه القداسة بأصول يهودية · كما أنه من ناحية أخرى يركز على أن القوة المسلحة هى التى فرضت حكم الأمر الواقع لكل من المسيحيين والمسلمين · ثم يصل الى النقطة الأساسية فى هذا الفصل حين يقول : « ولم يزل هناك مطالب آخر بالأرض المقدسة ، وهو مطالب لا يملك قوات عسكرية ولا موارد امبراطورية : ومع ذلك فهو أشد اصرارا وثباتا فى دعواه ، الا وهو اليهودى الذى يعبر ، ثلاث مرات يوميا ، عن حنينه الى الأرض المقدسة وعاصمتها ، وعن أمله فى العودة والخلاص · ولم تكن دعواه حقا مكتسبا بالتقادم كما لم تكن دعوى قابلة للتحويل أو النقل ، فقد ربط بين الدين الذى صان الأمة المشتتة على مدى أكثر من الف سنة تحقيق نبوءة نهاية العالم بالنبوءة القائلة بجمع الشتات والعودة الى الوطن ··· » (١٣) ·

أليست هذه دعاية صهيونية صريحة ؟ فالذين يبحثون عن صلة تربط الصهيونية بالتراث اليهودى يرون فى الحركة الصهيونية رمزا لنهاية الأيام ، ويرون فيها أيضا تحقيقا للتحرر

(١٣) P. 12.

من حياة الشتات ، ونهاية لحياة المنفى ، وبداية للاستقرار • وهذا كله يعنى أن فكرة الصهيونية في تصورهم امتداد للفكر الخلاصى فى اليهودية • وقد وصفها البعض بأنها حركة خلاص علمانية فى الفكر وفى وسائل التنفيذ ؛ وهو ما يعنى أن زعمـاء الصهيونية استغلوا فكرة دينية هامة ، هى فكرة الخلاص ، وحاولوا تنفيذ هذه الفكرة بوسائل علمانية عن طريق استغلال الظروف السياسية وتطبيق سياسة الاستيطان • فالصهيونية فى رأى هذا الفريق هى الحلقة الأخيرة فى سلسلة الأحداث التاريخية التى بدأت بالسبى البابلى • وهم بهذا يقولون بحتمية ظهور الصهيونية ، ويفسرون قيام دولة اسرائيل على أنه تحقيق لرغبة كامنة فى روح اليهودى منذ زمن سحيق ، هى رغبة العودة الى اسرائيل (١٤) •

هذه الرؤية الصهيونية استلزمت استغلال الأدب والتاريخ لخدمة الهدف الدعائى للحركة الصهيونية ، والتركيز على فكرة

---

(١٤) محمد خليفة حسن ، الحركة الصهيونية ، ص ١٥ ــ ١٨ ، أسعد رزوق ، فى المجتمع الاسرائيلى ــ محاولة أولية لدراسة التناقض والتكامل من زاوية علماء الاجتماع فى اسرائيل وخارجها (معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧١) ص ٥٤ ــ ٦٦ • انظر أيضا :

Arthur Hertzberg (ed.), The Zionist Idea, A historical Analysis and Reader, (Altheneum, New York 1971) ,pp. 16 — ff.;

وقد فسر بعض اليهود قيـام دولة اسرائيل على انه تحقيق للوعد بالخلاص ، وان كان بعض اليهود قد اعتبر هذه الدولة مجرد تحقيق جزئي فقط ، وان التحقيق الكامل للخلاص يتحقق بخلاص البشرية كلها « عندما يكتمل العالم عدالة وأخوة وسلاما تحت حكم مملكة الخلاص الالهية » • انظر :

Abba Hillel Silver, A History fo Messianic Speculation in Israel, from the first through the seventeenth centuries (Beacon Press, Boston 1959) pp. XX — XXI.

حلم الخلاص بالعودة الى صهيون فى كافة الكتابات التاريخية التى يكتبها اليهود ، ولم يكن يوشع براور فى كلماته التى أوردها سوى أحد الذين يعزفون هذه النغمة المتكررة ؛ فهو يواصل حديثه فى رنة مأساوية مؤثرة عن معاناة اليهود فى ظل الحكم البيزنطى وحنينهم للعودة الى فلسطين التى يزعم أنها أرض يهودية · ويختتم براور الفصل الأول بعبارة تقول ان الأرض المقدسة ظلت أرض المطالب الدائمة لدى أصحاب الديانات الثلاث وأن الظروف التاريخية ووسائل فرض الأمر الواقع هى التى كانت تحدد من يتولى حكمها وبسط سيادته الفعلية عليها · ثم يخلص الى أن مجموعة فريدة من العوامل السياسية والثقافية والدينية اجتمعت فى نهاية القرن الحادى عشر لتحرك أحد المطالبين بالأرض المقدسة ، وهو العالم المسيحى الغربي الذى ترجم رابطة العاطفة التى تربطه بهذه الأرض الى سيطرة سياسية بفضل القوة العسكرية فى سلسلة الحروب التى عرفت باسم الحروب الصليبية ·

وفى تصورنا أن هذا الفصل يطرح موقفا غاية فى الخطورة ؛ فهو يعترف بالقدسية المشتركة للاماكن المقدسة عند المسلمين والمسيحيين واليهود ، ولكنه يحاول تفسير الأمر بشكل يجعل من حق من يملك القوة العسكرية أن يفرض سيطرته عليها بمنطق الأمر الواقع ؛ وهو منطق لو سلمنا به لبدت لنا التصرفات الاسرائيلية المعاصرة متسقة مع المنطق التاريخى الذى يحاول يوشع براور اصطناعه · ومن ناحية اخرى ، لا يفوت براور الفرصة لكى يزعم لليهود حقا تاريخيا فى الأرض العربية ويحاول أن يسرق لهم دورا من التاريخ فى المنطقة ؛ مصورا اليهود وكأنهم كانوا شعبا مقهورا يعيش فى المنطقة تحت حكم الآخرين ، على حين أن الواقع التاريخى يشهد ، وبأقلام بعض اليهود مثل بنيامين النظيلى ، أنهم كانوا أقلية ضئيلة تماما بحيث لا يمكن أن تكون لها مقومات الأمة الواحدة أو الشعب الواحد · وقد تأكد

هذا من خلال الحقيقة القائلة بأن المهاجرين الأوربيين اليهود هم الذين شادوا الكيان الاسرائيلى فى أواسط القرن العشرين ·

والفصل الثانى فى الكتاب يتحدث عن « الحملة الصليبية The Crusade» ، وهو يعرض للاسباب والدوافع التى أدت الى ظهور الحركة الصليبية · والتحليل الذى يقدمه براور يكشف عن أن الحركة الصليبية لم تقم على أسس دينية قوية · ولكنه يتوقف كثيرا أمام الهجمات الصليبية على الجماعات اليهودية فى مدن الراين · وبأسلوب عاطفى وتصوير مأساوى يصف لنا كيف أن الحروب الصليبية قد خلقت طقس الاستشهاد اليهودى ؛ فبدلا من قبول التعميد الجبرى على أيدى المسيحيين ، كان الرجال اليهود يذبحون نساءهم وأطفالهم وهم يرتلون الصلوات الخاصة بذبح الحيوانات ، ثم ينتحرون · وهو يجسد الموقف الاسرائيلى حين يصمم على ربط هـذه المذابح بالهولوكوست الحديث على أيـدى النازيين ، ويختتم هذا السرد بعبـارة تقـول : « هكذا أضيفت أسـماء قـادة من أمثـال فولكمار ، وجوتشولك ، وأميخو (١٥) الى قائمة العار الطويلة فى تاريخ أمة الشهداء » (١٦) ·

هذا الاستغلال السيىء للتاريخ فى سبيل الدعاية للكيـان الصهيونى سمة تكاد تكون عامة فى الكتابات اليهودية عن الحروب الصليبية كما أشرنا من قبل ·

وعلى أية حـال ، فان براور يستعرض أحـوال الحملـة الصليبية بداية بخـروج الجيـوش الصليبية ومرورا بأحـداث القسطنطينية حتى وصولهم الى آسيا الصغرى وبداية المعارك ضد

---

(١٥) هؤلاء هم قادة الجماعات الصليبية التى هاجمت اليهود فى أوربا أثناء خروج جيوش الحملة الصليبية الأولى ·

(١٦) p. 20

الصليبيين ، ثم تطورات الأحداث حتى سقوط مدينة بيت المقدس والمذبحة الشنيعة التى أعقبتهـا ، وهى مذبحـة راح ضحيتها المدافعون عن المدينة فضلا عن سكانها المسلمين واليهود ٠

أما الفصل الثالث ، فقد جعل عنوانه « الصليب والهلال «The Cross and the Crescent » ، وهو يتحدث فى هذا الفصل عن القدس التى قد باتت مدينة مسيحية بعد أربعة قرون من السيادة الاسلامية ٠ ويستهل براون حديثه فى هذا الفصل عن تحويل المساجد الاسلامية والمعابد اليهودية فى الأرض المقدسة الى كنائس ، ومنع اليهود والمسلمين من سكنى المدينة المقدسة ٠

هذا الفصل مكرس أساسا للحديث عن المواجهة الطويلة بين المسلمين والصليبيين ، ولكن يوشع براون اختار له هذا العنوان حتى يبدو الأمر وكأنه صراع دينى بين أتباع ديانتين ، والواقع أن الصراع ضد الصليبيين كان صراعا بين حضارتين ، كما كان صراعا من أجل البقاء ٠ اذ كان لابد من القضـاء على الكيان الصليبى الدخيل حتى تبقى المنطقـة العربية محتفظـة بمقوماتها الحضـارية العربية الاسـلامية ٠ والجدير بالذكـر أن الطوائف المسيحية الشرقية تنتمى الى الحضارة العربية الاسلامية التى هى ليست مجرد دين ٠ وقد اتخذت هذه الطوائف موقفا معاديا من الحركة الصليبية ، كما أنها عاشت فى رحاب الحضارة العربية الاسـلامية وسـاهمت في صنع منجزاتها ٠ وانتمـاء الجماعات المسيحية العربية لهذه الحضارة واضح فى الاتجاهات الثقافية لدى هذه الجماعات ، وفى عاداتها ، وتقاليدها ومثلها العليا ، ولم يقف الدين حـائلا دون ذلك ٠ وهو ما يؤكد أن الصـراع الاسلامى / الصليبى لم يكن مجرد صراع بين الصليب والهلال كما يذهب يوشع براور ٠

في هذا الفصل يركز يوشع براور على العوامل التى أدت الى نجاح الحملة الصليبية الأولى ؛ فهو يقرر الحقيقة القائلة بأن الفوضى السياسية التى أنشبت مخالبها فى المنطقة ، وميراث الحقد والمرارة والشك بين حكامها ، هو الذى شجع قادة الصليبيين على المضى قدما ، وتدعيم وجودهم فوق الأرض العربية • وفى ظل العجز العربى شاد الصليبيون دولة عاشت قرنين من الزمان فى مواجهة القوى الاسلامية (١٧) •

واللافت للنظر فى هذا الفصل أن المؤلف يتحدث عن فكرة الحدود الطبيعية (١٨) على نحو يذكرنا بقضية الحدود الطبيعية ومفهوم الأمن الاسرائيلى • ومن ناحية أخرى ، نجد يوشع براور حريصا على استخدام الأسماء العبرية الواردة فى الكتاب المقدس للدلالة على المناطق التى شهدت أحداث الحروب الصليبية (١٩) ، دون سبب منهجى معقول ؛ ولا سيما أن أسماء هذه المناطق ، فى تلك الفترة التاريخية كانت هى نفس الأسماء العربية المستخدمة حاليا • والجدير بالذكر أن الأسماء التى استخدمها براور هى نفس الأسـماء التى يستخدمها الاسرائيليون المحدثون فى هـذه المناطق ، وهو أمر لا تخفى دلالاته بطبيعة الحال •

ويناقش المؤلف مفهوم الأمن للكيان الصليبى باهتمام كبير (وحافل بالاسقاطات المعاصرة أيضا) حين يقول ان استراتيجية الصليبيين قامت على أساس الحدود الطبيعية ؛ ففى الشمال كانت

---

(١٧) pp. 23 — 29

(١٨) يقول براور ما نصه « ••• لقد ثبت غزو الساحل الحدود الغربية الطبيعية للمملكة الصليبية ••• » p. 31 ، ويكرر العبارة مرة أخرى (p. 31) على نحو اكثر وضوحا حين يقول : « ••• ومع بداية العقد الثانى بلور الصليبيون استراتيجية أمن عسكرية وسياسية يمكن تلخيصها فى عبارة الحدود الطبيعية ••• » •

(١٩) P. 31

الحدود تمتد بين بيروت وطرابلس ، وفى الشمال الشرقى كان الصليبيون يسيطرون على منابع نهر الأردن ، أما الحدود الشرقية فكانت أكثر من مشكلة ؛ لأن الصليبيين لم يتمكنوا من الاستيلاء على دمشق أو حتى توطيد أنفسهم فى مرتفعات الجولان · وكانت سياسة جعل الصحراء هى الحدود الطبيعية بين مصر ومملكة بيت المقدس هى أهم مشاغل المملكة من الناحية الجنوبية (٢٠) ·

ويركز المؤلف على فشل القوى العربية الاسلامية فى التصدى للصليبيين طوال السنوات الخمسين التى تلت قيام مملكة بيت المقدس بسبب عدم تعاون الحكام العرب وشكوكهم المتبادلة ، كما يهتم بأن يوضح أن مصر ، بكل مواردها البشرية والاقتصادية ، لم تكن ندا للاوربيين المساندين للكيان الصليبى · ثم يعرض لتطورات رد الفعل الاسلامى التى بدأت من الموصل تحت حكم الزنكيين ، موضحا كيف أن الرأى العام الاسلامى بدأ يضغط على الحكام العرب · الى أن يصل الى ظهور نور الدين محمود ومحاولات توحيد الجبهة الاسلامية التى انتهت بالاستيلاء على دمشق والتدخل فى مصر · ثم ينتقل الى الصراع حول مصر بين نور الدين والصليبيين · ويوضح براور أهمية مصر فى حسم مصير الصراع الدائر على أرض الشام ، ومحاولات الصليبيين لضمها أو ضمان حيادها · وهو أيضا يتحدث فى كلمات واضحة

---

(٢٠) اظهر دافيد بن جوريون اهتماما كبيرا بالصحراء الجنوبية (النقب) ، وكان رأيه منذ سنة ١٩٣٨ انه يجب على اليهود استعمار النقب لان الحدود المرسومة لا تكفى ، بل انه شخصيا اختار السكن فى احدى مستعمرات النقب · عن تفاصيل هذا الموضوع ، أنظر : تهانى هلسة ، دافيد بن جوريون ، ص ١٧٩ ـ ١٨٤ · وقد الف بعض اليهود كتابا خاصا عن هذا الموضوع كتب مقدمته دافيد بن جوريون وأودعها آراءه فى هذا الموضوع ، أنظر :

Morvis Yaakov, Masters of the desert, (G. P. Putnam's Sons, New York 1961).

عن أن اتحاد مصر وسوريا والعراق ضد اللاتين كان هو الخطر الحقيقى ضد أولئك الغزاة •

يتضح هذا الموقف ليوشع براور من وحدة القوى العربية الاسلامية فى مصر وسوريا والعراق من خلال استعراضه لمحاولات صلاح الدين يوسف ابن أيوب فى هذا الصدد ، وما قام به الصليبيون من محاولات التآمر مع أعداء صلاح الدين الحلبيين للاطاحة به حتى تفشل هذه الوحدة ، على حين بدأت قواتهم تشن غارات نشيطة على مناطق الحدود المصرية والبحر الأحمر (٢١) •

ومن المهم أن نشير الى محاولات براور للتقليل من شأن صلاح الدين الأيوبى ، على الرغم من أنه يغلف هذه المحاولة بكلمات رقيقة ؛ فهو يقول : « كان صلاح الدين ، بطل التاريخ الاسلامى زعيما وقائدا عسكريا متوسط القيمة ، كما كان رجل دولة موهوبا ، كريما مع الصديق والعدو ، محبا للغير يبعث على الثقة • كان صلاح الدين يجسد الأخلاق الاسلامية فى عيون

---

(٢١) الجدير بالذكر انه حدث فى العالم العربى حركة اتحادية بين مصر وسوريا والعراق ، وهى « الوحدة الاتحادية » التى أبرمت اتفاقيتها سنة ١٩٦٣ (١٧ أبريل) ، وقد انزعجت اسرائيل من هذا الاتحاد الذى كان شبحه يطاردها منذ قيامها ، ولكن للاسف لم تصدق مخاوفها إزاء هذه الوحدة التى لم تلبث أن تجمدت • على أية حال بدأ بن جوريون يكتب لزعماء الدول عن أخطار هذا الاتحاد ، وطالب الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى بضمان حدود دول الشرق الأوسط • وبدأ يبحث عن المساندة الفرنسية أو الامريكية من خلال التحالفات أو المعاهدات • انظر : تهانى هلسة ، دافيد بن جوريون ، ص ١٥٧ — ١٥٨

Bar Zohar, Michael, The Armed Prophet : A Biography of of Ben Gurion, (Arthur Barker Ldt. London 1966), pp. 292 — 294.

المسلمين ، فهو الزعيم المثالى للحرب المقدسة ضد الكفار ٠٠ »(٢٢)
والواقع أن براور يحاول النيل من أبطال التاريخ الاسلامى ونماذج النضال فيه كما يحاول النيل من الشعوب العربية فى ثنايا صفحاته كما سنرى ٠

وبعد حطين وسقوط بيت المقدس فى أيدى المسلمين يتعرض المؤلف لدور الظهير الأوربى فى الحملة الثالثة التى جاءت كرد فعل أوربى تجاه انتصارات صلاح الدين ٠ ثم يعرض لما حدث بعد وفاة صلاح الدين من تفكك فى العالم العربى الاسلامى أتاح للصليبيين فرصة التقاط الأنفاس ٠

ويهتم يوشع براور فى هذا الفصل أيضا برصد الأحوال داخل أوربا باعتبارها الظهير المساند للكيان الصليبى ، وكيف أن النتائج الهزيلة للحملة الصليبية الثالثة أفرخت أزمة ايديولوجية جعلت الشكوك تساور البعض حول الالهام الالهى الذى يزعمه الصليبيون ٠ ثم يستعرض ظروف الحملة الرابعة التى هاجمت القسطنطينية ، والفشل الذى أصاب الحملة الخامسة ، ثم الحملة السادسة التى قادها الامبراطور فردريك الثانى المحروم من البابوية ، ورغم هزال جيشه فانه نجح فى عقد اتفاقية مع السلطان الكامل الأيوبى تقضى بأن تكون القدس للصليبيين دون مسجدها وساحتها ، كما يأخذ الصليبيون بيت لحم والناصرة ٠ وعلى الرغم من ذلك كان الكيان الصليبى يمضى فى طريق الغروب ٠ وهنا يظهر مرة أخرى دور التمزق العربى فى حفظ الكيان الصليبى وتأجيل سقوطه ، اذ يقول براور : « ٠٠٠ وكان من حسن الطالع أن العالم العربى المجاور لم يحرز تقدما ، فقد صارت دمشق هى محور المعارضة لمصر ، كما أن امارة شرق الأردن كانت فى

---

(٢٢) p. 37 ومن المهم أن نشير الى انه يذكره باسم صلاح الدين الكردى Saladin The Kurd.

سبيلها لتغيير حلفائها • وجاء الجميع على استعداد لقبول الصليبيين كحلفاء • ومن سوء حظ المملكة اللاتينية أنها كانت تفتقر الى الزعيم ••• » (٢٣) • وبعد ذلك ينتقل المؤلف الى الحديث عن ظهور دولة سلاطين المماليك وظهور بيبرس الذى أحاطت جيوشه ببقايا الصليبيين من كل اتجاه ، ثم سقوط القلاع الباقية حتى ينتهى الوجود الصليبى على الأرض العربية •

واللافت للنظر حقا فى هذا الفصل ، عامة ، هو أن المؤلف يتصور أن الصليبيين قد بنوا سياستهم على مفهوم الحدود الطبيعية التى يسهل الدفاع عنها ؛ وهو ما يبدو لنا بمثابة اسقاط معاصر للتصورات الاسرائيلية ونظرية الأمن الاسرائيلية التى تعتبر فكرة الحدود الطبيعية التى يسهل الدفاع عنها من أهم أركانها • وثانيا ، يسترعى الانتباه اصرار المؤلف فى هذا الفصل ، وفى غيره من فصول الكتاب ، على استخدام الأسماء العبرية فى حديثه عن المناطق العربية ، وهو فى تصورنا محاولة لتكريس الزعم الصهيونى بالأحقية التاريخية فى هذه الأرض • أما الأمر الثالث فى هذا الفصل فمؤداه أن يوشع براور يبرز من خلال السياق التاريخى أن فترات ازدهار الكيان الصليبى كانت مرتبطة على الدوام بتفشى الخلافات بين القوى العربية وعجز الحكام العرب عن توحيد جهودهم • وما يزال هذا هو الرهان الاسرائيلى المعاصر • كما أن محاولات الصليبيين لفصل مصر عن بلاد الشام والعراق لضمان السيطرة على المنطقة العربية ما تزال هدفا من أهداف السياسة الاسرائيلية فى عصرنا الحالى • والأمر الرابع اللافت للنظر فى هذا الفصل هو أن المؤلف يربط باستمرار بين تقلبات أحوال الصليبيين وبين الواقع الفكرى داخل أوربا التى كانت تلعب دور الظهير للمملكة الصليبية ؛ فهو يؤكد أن فكرة

(٢٣) p. 47.

الحروب الصليبية فى أوربا كانت قد انتهت (٢٤) وأن هـذا هو السبب فى ضمور الكيان الصليبى واضمحلاله . ويمكن أن نربط بين هذا الموقف وبين الاصرار الاعلامى الصهيونى على الترويج للفكرة الصهيونية ، وربطها بالاضطهادات أو ما يسمى بظاهرة معاداة السامية من ناحية ، والالحاح على النموذج الاسرائيلى الذى يعتبر طليعة للنظام الديموقراطى الغربى فى المنطقة العربية بزعمهم .

والفصـل الرابع فى الكتـاب عنوانه « شرق المتوسط «The Levant» . ويتحدث فيه براور عن حياة الصليبيين تحت سماء الشرق . وأهم ما فى هذا الفصل تناوله العام لما يمكن أن نطلق عليه « الغربة الحضارية للمستوطنين الصليبيين » . وهو فى هذا الفصل يتناول المجموعات والطوائف السكانية والدينية والمذهبية التى يتكون منها المحيط البشرى الذى عاش الصليبيون فى اطاره . وهو يوضح أن الشرق ، المسلم والمسيحى ، كان هو الاكتشاف الكبير بالنسبة لأبناء الغرب اللاتين القادمين بأسلحتهم تحت راية الصليب .

ومن الأمور الهامة فى هذا الفصل ما ذكره براور من أنه بين الطوائف المسيحية الكثيرة فى بلاد الشام ، لم تكن هناك طائفة أقـرب الى الصليبيين من الطائفة المارونية (٢٥) ، وهى الطائفة التى قبلت الخضوع لبابا روما سنة ١١٨٤ م . وعلى الرغم من فترات التبـاعد بين مسيحيى لبنـان والغـرب ، ظل المسيحيون اللبنانيون على اتصالهم بروما ؛ ومن ثم كانوا أكثـر تعرضـا للمؤثرات الأوربية أكثر من أية طائفة مسيحية أخرى فى المنطقـة العربية ، وهو موقف ما يزال قائما حتى اليوم . والأمر الثانى

---

(٢٤) p. 50.
(٢٥) p. 63.

الهام فى هذا الفصل هو أن يوشع براور حين يتحدث عن اليهود فى عصر الحروب الصليبية ، يحاول الايهام بأن كافة الطوائف اليهودية (ربانين وقرائين وسامرة) قد انضموا الى قوات المسلمين لكى يدافعوا عن مدنهم ، وأنهم دفعوا ثمنا غاليا فى القدس وحيفا فى سبيل صد الغزاة (٢٦) • وقد تعرضنا لهذه المحاولة بالتفنيد فى صفحات سابقة ، ولكن المؤلف لا يمل من تكرارها بين ثنايا صفحات كتابه ، ومن نافلة القول أن نكرر أن هذه المحاولة لا تقف على أرض من الحقائق التاريخية •

الفصل الخامس يتحدث عن « المثال الواقع » «Ideals and Realities» وهو يبدأ عن أن المستوطنات الصليبية تحت سماء الشرق كانت قد وجدت بقصد البقاء ، كما يتحدث عن أن كل يوم كان يمر « ••• يفرض على الأقلية الصغيرة المنتصرة أن تخوض صراعا جديدا فى سبيل البقاء ••• » (٢٧) • ويرتب على هذه المقولة نتيجة مؤداها أنه كان لابد للكيان الصليبى من اليقظة المستمرة ، والحذر من الهجوم الخارجى ، أو الثورة والتخريب فى الداخل ؛ وهو ما أدى بدوره ــ منذ البداية ــ الى تنظيم الدولة والمجتمع فى سبيل الحرب (٢٨) •

---

(٢٦) p. 64

(٢٧) p. 72.

(٢٨) كانت أول مهام بن جوريون بعد اعلان قيام الدولة اليهودية فى فلسطين أن جعل نفسه القائد العام للقوات اليهودية ، وفى ٢٦ مايو ١٩٤٨ أعلن عن قيام « جيش الدفاع الاسرائيلى » • ومنذ ذلك الحين تمت صياغة الدولة والمجتمع فى اسرائيل من أجل الحرب ، انظر : تهانى هلسة ، دافيد بن جوريون ، ص ٨٣ ــ ٩٤ ، حامد ربيع ، دراسات أساسية ، ص ٦٣ ــ ٦٨ حيث يناقش ارادة التحدى والقتال فى المجتمع الاسرائيلى وصياغة النظام السياسى لاستيعاب المواجهة المصيرية •

وأهم موضوع يناقشه هذا الفصل هو مشكلة الموارد البشرية فى المستوطنات الصليبية ، وفى رأى يوشع براور أن هذه المشكلة كانت بمثابة الفشـل الصليبى الأكبر ، كما أنهـا كانت السبب الجوهرى فى الافلاس المطلق للكيانات اللاتينية فى الشرق • وهو يستعرض أطوار ومراحل مشـكلة الموارد البشرية والصعوبات الكثيرة التى كانت تعـوق نمو الموارد البشـرية فى المستوطنات الصليبية ؛ فبعـد الحملة الأولى لم تكن استجابة أوربا الغربية لتوسلات المملكة اللاتينية فى الشرق كافية للوفاء باحتياجاتها • وبدلا من طوفان المهاجرين الجدد الذى كان متوقعا عقب نجاح الحملة ، لم ترحل الى الشرق سوى جماعات هزيلة • ولم يأت بآلاف الناس الى الشرق مرة أخرى سوى تلك الحملات الصليبية التى أعقبت الكوارث ؛ مثل سقوط الرها ، ثم سقوط بيت المقدس فى أيدى المسلمين • ولكن لم يبق بالأرض المقدسة سـوى جزء صغير للغاية من الحشود التى كانت تشارك فى الحملات الكبيرة ، على حين رجع الباقون الى أوربا •

بلغ العدد الكلى للصليبيين فى المنطقة العربية حوالى ربع مليون نسمة ، كانت نسبتهم داخل حدودهم بالقياس الى أعدائهم واحد الى خمسة تقريبا • وهنا يبرز موقف يوشع براور بشكل أكثر وضوحا اذ يقول : « ••• وبينما يبرهن هذا التقييم الاحصائى على أن الصليبيين فشلوا فى الاستعمار الاستيطانى ، فان هذا التقييم الاحصائى نفسه يبدو أكثر أهمية عند النظر اليه من خلال الاطار الجغرافى للشرق الأدنى ؛ حيث لم يكن ربع المليون أوربى يواجهون السكان المسلمين داخل مناطق سيادتهم فحسب ، وانما كانوا يواجهون ملايين المسلمين من النيل الى بلاد النهرين • ومن حسن حظ الصليبيين أن المسلمين كانوا عاجزين عن تعبئة مواردهم على مدى أكثر من مائة وخمسين عاما •• ذلك أن محاولات توحيد القوى الاسلامية ، مثل محاولة صلاح الدين ، لم تكن تعمر طويلا

بعد وفاة صاحبها . ولم يقدر على خلق دولة موحدة سوى دكتاتورية القائد المملوكى بيبرس فى منتصف القرن الثالث عشر ، عندما فرض الوحدة الصارمة ... » (٢٩) .

هذا هو حل المعادلة الصعبة المتعلقة بمشكلة القوى البشرية فى رأى يوشع براور ؛ التمزق والتشرذم الاسلامى يضمن البقاء لربع مليون مستطن صليبى ؛ فاذا تمت الوحدة العربية الاسلامية كان ذلك ايذانا بالقضاء على الكيان الصليبى .

ولعل هذا التفسير يوضح لنا مشكلة على جانب خطير من الأهمية بالنسبة للكيان الاسرائيلى المعاصر ، وهى مشكلة الهجرة اليهودية من شتى أنحاء العالم الى اسرائيل . فالكيان المزروع فى أرض غريبة ، ووسط محيط بشرى معاد ، لابد من حقنه باستمرار بالقوى البشرية الوافدة ، الى جانب العمل على تمزيق أية محاولات وحدوية ، أو أية محاولات تكوين المحاور بين القوى المعادية فى المنطقة . وهو أمرنستطيع أن نفهمه بوضوح من خلال الضجة التى تثيرها الصهيونية حول حقوق الانسان ازاء القيود التى كان يهود الاتحاد السوفيتى يتعرضون لها ، فيما يتعلق بالهجرة من ناحية ، وتلك الجهود الصهيونية النشطة لابقاء تيار الهجرة الى فلسطين مستمرا متدفقا منذ بداية تنفيذ خطة اقامة الكيان الصهيونى على أرض فلسطين من ناحية أخرى (٣٠) .

---

(٢٩) p. 74

(٣٠) كان عدد يهود فلسطين عند صدور وعد بلفور الشهير حوالى خمسين ألف نسمة ، يقابلهم من العرب ستمائة وخمسون ألف نسمة ، أى أكثر من اثنى عشر ضعفا . وقد زاد عدد اليهود منذ ذلك الحين بمعدل سريع جدا ، انظر : عادل حسن غنيم ، الحركة الوطنية الفلسطينية من ١٩١٧ - ١٩٣٦ (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ م) ، ص ٧٥ وما بعدها ، وقد لعب السير هربرت صمويل المندوب السامى البريطانى اليهودى دورا هاما فى تشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين آنذاك ، المرجع نفسه ، ص ٧٣ - ٧٦ ، انظر أيضا : تهانى هلسة ، دافيد بن جوريون ، ص ١٩ - ٢٠ .

ثم يشرح براور كيف أن التفوق العددى للمسلمين جعل الصليبيين فى حالة حرب دائمة ، كما اضطرهم للسكنى فى مواقع محصنة ، كما أنهم رصعوا جميع الطرق والممرات الرئيسية بالحصون التى كانت أشبه بنقاط المراقبة أو مراكز الشرطة • هذه العسكرة الواضحة للكيان الصليبى يمكن مقارنتها من عدة وجوه بالعسكرة السافرة للكيان الاسرائيلى ، وهو أمر سوف يتجلى بوضوح أكثر عند حديثنا عن الجوانب الحربية لدى الصليبيين •

ويختتم المؤلف حديثه فى هذا الفصل بالقول بأن وجود المستوطنات الصليبية فى الشرق كان يعتمد على أوربا ، ليس من أجل الهجرة فحسب وانما من أجل العون المادى أيضا •• وهو يكشف عن أن هذه المساندة الأوربية كانت قوية طالما كانت العقائد التى أفرزت الحروب الصليبية قوية فى وجدان شعوب أوربا • ولكن رياح التغيير التى هبت على أوربا مع مطلع القرن الثالث عشر جعلت أوربا تقطع صلاتها العاطفية بمستعمراتها الشرقية « ••• ولم تكن الحماسة الصليبية القديمة تؤجج سوى صدور أصحاب الرؤى والنبوءات مثل سان لوى (لويس التاسع) • ولفترة وجيزة فقط • ولكن الحركة حينذاك كانت تسير صوب نهايتها المحتومة ••• » (٣١) •

هذه الكلمات التى ساقها المؤلف فى نهاية الفصل الخامس تشى بأن مشكلة الظهير الأوربى ومدى أهميته ، تشكل جانبا من أهم جوانب الرؤية الاسرائيلية للحروب الصليبية • اذ أن الكيان الصهيونى يعتمد على الغرب أيضا ، ليس من أجل العون البشرى فقط وانما من أجل العون المادى كذلك • وعلى الدوام يحرص الاسرائيليون على وجود قدر كبير من التوازى والتوافق بين مصالحهم ومصالح الظهير الذى يساندهم ، ولعل هذا هو

---

(٣١) p. 82

ما يجعلهم يغيرون حلفاءهم حسب قوة أولئك الحلفاء من جهة ، وحسب مصالحهم فى المنطقة العربية من جهة أخرى .

الفصل السادس يتناول « الحياة فيما وراء البحر «Life in Outremer . وفى هذا الفصل يبدأ براور الحديث عن أن الجيل الثانى والجيل الثالث من المستوطنين اللاتين والذين عرفوا باسم « البولان » Poulins (٣٢) كانت كلمة « الوطن » بالنسبة لهم تعنى الأرض المقدسة . أما أوربا ــ الوطن القديم ــ فكانت مجرد مكان ترتبط به أصولهم البعيدة (٣٣) . بيد أنه ما يلبث أن يناقض نفسه حين يقول ان حياتهم المنزلية وعلاقاتهم الأسرية وخصوصياتهم كلها كانت انعكاسا لأوربا ، ولفرنسا على وجه التحديد « ... فقد نشأ فى ظل نفس التعاليم الدينية ، ولقن نفس مبادىء العقيدة ، ورسم مواقفه وتصوراته الثقافية اعتمادا على نفس الأساطير والقصص الدينية ، وروايات البطولة وأشعار البلاط التى يتذوقها قرينه فى أوربا الغربية . وهكذا برزت الى الوجود فرنسا ما وراء البحار France d'Outremer ...» » (٣٤) .

ان هذه الفترة التى يبدأ بها براور حديثه عن المستوطنين الصليبيين تحت سماء الشرق تكشف عن أن هذا الكيان الغريب كان يرتبط وجدانيا وثقافيا بالغرب الذى اعتبره طليعته فى الشرق . وهو ذات الموقف الذى نلمسه الآن داخل اسرائيل لا سيما بالنسبة لأولئك اليهود القادمين من دول الغرب الأوربى والأمريكى . وعلى الرغم من محاولة الصهيونية الدؤوب لاختلاق هوية قومية اسرائيلية ، من خلال انتحال التراث العربى فى المنطقة ومن خلال اعادة صياغة التاريخ ، ومن خلال سرقة الفولكلور

---

(٣٢) يمكن ترجمة هذا المصطلح أو فهمه بمعنى « الأولاد » .

(٣٣) p. 83.

(٣٤) p. 84.

العربي ، وعلى الرغم من أن البيئة لعبت دورها فى تشكيل حياة المستوطن الاسرائيلى ، كما لعبت دورها فى تشكيل حياة المستوطن الصليبى من قبل ؛ فان انتماءات هذا المستوطن أو ذاك لم تكن للحضارة السائدة فى المنطقة · وهو أمـر طبيعي بحكـم الغربة الحضارية للكيان الاستيطانى ، وانمـا كانت هـذه الانتمـاءات للمجتمع والحضارة اللذين يمثلان الظهير المساند باعتبـار أن المستوطنين نتاج لهما ·

بعد ذلك يعرض يوشع براور مظاهر الحياة فى المستوطنات الصليبية ؛ ويبدأ بالحديث عن أن المنازل والقلاع التى سـكنها الصليبيون فى بلاد الشام كانت ملكا للمسلمين قبـل الغـزو واضطروا الى هجرها · ولا تهمنا فى هذه الدراسة تفاصيل هذا الفصل على الرغم من أنه يقدم معلومات ممتعة وهامة عن حياة الصليبيين فى بلاد الشام · وهنا يجدر بنا أن نشير الى أن المؤلف باحث متمكن من أدوات البحث بالقدر الذى جعله يعطينا صورة تفصيلية عن أدق معالم الحياة اليومية فى المستوطنات الصليبية · ومن الأمور اللافتة للنظر فى هذا الفصـل أن ملابس الصليبيين كانت أوربية فى أساسها ، كما كانت تتغير فى طرزها تبعا للطرز الأوربية · وكان احسـاس الصليبى بهويته الجنسية وغربتـه الحضارية عميقا لدرجة أنهـم كانوا يمنعون غير الفرنجـة من ارتداء الملابس الاوربية الطراز · وهذا التمسك بالعادات الغربية عبر عن نفسه أيضا فى مقاومة اللاتين للعادة الشرقية فى اطلاق الذقون · فبينما كان من اشتركوا فى الحملة الأولى ملتحين ، كما كانت العادة فى أوربا آنذاك ، سار المستوطنون الصليبيون فى منتصف القرن الثانى عشر على العـادة الأوربية فى حلق الذقون ، وصارت وجوههم الحليقة والشعر المسدل على الكتفين علامة مميزة لهم ، ومحطا لاحتقار الشرقيين وامتعاضهم فى الوقت نفسه (٣٥) ·

---

(٣٥) p. 87

ولا حاجة بنا الى التدليل على أن التمسك بالمظاهر الأوربية فى الملابس والشكل كان يتمشى مع الاحساس بالانتماء الثقافى والوجدانى للغرب من ناحية ، وبالغربة الحضــارية فى المنطقــة العربية من جهة أخرى • وتمسك الصليبى بمظاهر هويته الأوربية كان ، فى تصورنا ، دفاعا تلقائيا عن الذات الحضارية فى وسط حضارى مختلف ، ومتفوق ، ومعاد أيضا • كما أن تمسك المجتمع الاسرائيلى المعاصر بمظاهر الحياة والثقافة الغربية ، والقــول دائما بأن المجتمع الاسرائيلى يبنى نفسه على أسس ديموقراطية ، متخذا من المجتمعات الأوربية قدوة ونموذجا ، تكشف عن مثل هذا الموقفالذى تدعمه مظاهر الحيــاة الأوربية الواضحة فى هــذا المجتمع ، وذلك على الرغم من تسليمنا بأن المجتمع الاسرائيلى يعيش فى وســط حضارى مختلف ، ولكنــه متخلف ، وان كان معاديا •

وبقيــة ما يتناوله الفصــل السادس يتحــدث عن طوائف السكان ، وأسواق المدن والأحياء الايطالية ، وقوانين الزواج ، فضلا عن الحرف التى مارسها أولئك السكان •

أما الفصل السابع فى كتاب عالم الصليبيين فلست أعتقد أنه يهــم هــذه الدراسة كثيرا ؛ اذ انه يتنــــاول موضوعا من موضوعات تاريخ العصــور الوسطى ، وان كان يرتبط بالحركة الصليبية ، عنوانه « قصص الفروسية والنظـــم العســكرية » The Romance of Chivalry and the Military Ordern ويتحدث فيه عن الفروسية كأحد عوامل ظهور الحركة الصليبية • وتطور مفهوم الفارس والفروسية ، والروايات الخيالية التى نسجت حول الفروسية والفرسان • ثم يرصد تأثير الحــروب الصليبية على تطور الفروسية • ثم يتحدث عن نظم الرهبنة العسكرية التى كانت من أهم الدعامات العسكرية للمستوطنات الصليبية •

لا شك فى أنها تؤثر على رؤية المؤرخ للاحداث المشابهة التى دارت على المسرح نفسه فى العصور الوسطى (٣٧) ٠

على أية حال ، يمضى المؤلف فى بيان حقيقة أن هذه الحصون والقلاع لم تكن جديدة تماما ؛ إذ كانت فى حقيقتها حصونا قديمة بناها المسلمون قبل الغزو الصليبى ، وانحصر دور الصليبيين فى تطوير نظم الدفاع بها ٠ ثم يتحدث عن شكل القلاع وتحصيناتها الداخلية والخارجية ، لينتقل بعد ذلك الى مناقشة تطور الفنون القتالية عند الصليبيين بفضل الصدام بين الشرق والغرب على أرض فلسطين ، وهو صدام تم على كافة المستويات ٠

يتحدث براور بعد ذلك عن تركيب الجيش الصليبى موضحا كيف أن القوة الأساسية فيه كانت تتشكل من الفرسان ذوى التسليح الثقيل ؛ وهو نتاج لتطور اقتصادى اجتماعى جرى على

(٣٧) مما يدعم ما ذهبنا اليه فى أن كلمات براور تحمل اسقاطات معاصرة أن مؤرخا متخصصا فى التاريخ العسكرى فى العصور الوسطى هو R.C. Smail ، كتب عن الشئون الحربية ، وعن القلاع على وجه الخصوص ، عند الصليبيين بأسلوب مختلف تماما ، اذ يقول : « كل الحكومات تقوم على القوة على نحو ما ٠ وربما كان هذا هو الأساس الأول الذى قامت عليه السيادة الفرنجية فى بلاد الشام ٠ ذلك أن الغزو الخارجى كان خطرا ماثلا ، كما أن الشعوب الخاضعة لم تكن أبدا راضية عن الحكم اللاتينى ، فقد أظهر هؤلاء الناس فى مناسبات هامة عدم ولائهم أو عداوتهم السافرة ٠ وتجسدت القوة فى جيش الميدان الصليبى من ناحية ، وفى الأماكن الحصينة من جهة أخرى ٠٠٠ » ٠ وعلى الرغم من أن سميل يتحدث عن نفس الموضوع الذى يعالجه براور ، ويتفق معه كذلك فى أن الجيش المتحرك والقلاع الحصينة هى دعائم القوة الصليبية ، فانه لا يستخدم نفس أسلوبه الذى يكشف عن نفسية واحد من المستوطنين على الأرض نفسها ، انظر
R.C. Smail, Crusading Warfare 1097 — 1193, (Cambridge University Press 1978), pp. 204 — ff.

اوربا فى تلك الآونة وجعل من الفرسان الثقيلة صفوة بين العسكريين . ثم يوضح كيف أن احتكاك الصليبيين بالمسلمين أدى الى عدة تغييرات عسكرية عند الصليبيين تجلت واضحة فى مجال التكتيك ومجال التسليح .

وفى سياق هذا الحديث يسوق يوشع براور فقرة عن المصريين يحاول فيها زرع المقولة الخاطئة بأن المصريين ليسوا أهلا للقتال ؛ فهو يقول : « ... ولم يكن التغيير الذى طرأ على التكتيك العسكرى لدى الصليبيين ، أو حتى التعديلات اللازمة لمواجهة الجيوش الشرقية نتاجا للصدام مع القوة العسكرية المصرية ــ التى كانت تمثل أقوى خصم فى الشرق ــ وانما كان نتيجة للصدام مع الجيوش السورية وجيوش بلاد ما بين النهرين . اذ لم يكن المصريون أبدا أمة عسكرية ، ومنذ القرن الثانى عشر حتى الغزو العثمانى لمصر كان كل أوربى يزور مصر يخرج بانطباع عن طبيعتها المسالمة ... » (٣٨) .

والأسباب التى تدعو يوشع براور الى محاولة زرع هذه المقولة تبدو واضحة جلية اذا ما أخذنا فى اعتبارنا أن المصريين هو أقوى خصم يواجهه الاسرائيليون حاليا . بيد أن ذلك لا يعفينا من أن نتصدى لهذا القول المغرض ؛ فالثابت تاريخيا أن الصليبيين لم ينجحوا فى حملتهم الأولى الا بسبب حياد الفاطميين ، بل والتنسيق بينهم وبين الصليبيين باعتبار أن الأتراك السلاجقة عدو مشترك للجانبين (٣٩) ، كما أن الهجوم

---

(٣٨) pp. 129 — 130.

(٣٩) عن هذا الموضوع انظر :

Archives de l'Orient Latin, I p. 162, Runciman A hist. of the Gusades, I, pp. 229 — 230, 167.

وكذلك : سعيد عاشور « شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية » ، فى كتابه بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى (بيروت ١٩٧٧ م) ، ص ١٦٠ ــ ٢٢٣ .

المصرى على بيت المقدس وانتزاعها من السلاجقة قبيل الهجوم الصليبى عليها ، وما نتج عن ذلك بالضرورة من تدمير تحصيناتها ، هو الذى سهل لصليبيى الحملة الأولى أخذها بعد حصار دام خمسة أسابيع فقط . كذلك فان مصر بمواردها البشرية والمادية هى التى أتاحت الفرصة لحصار الكيان الصليبى حين انضمت الى سوريا والعراق لتخلق الجبهة العربية الاسلامية الواحدة التى قادها صلاح الدين فى هجومه على الصليبيين ، ذلك الهجوم الذى أسفر عن استرداد القدس وانكماش اللون الصليبى على خريطة المنطقة العربية . فضلا عن أن الجيوش المصرية هى التى تولت القضاء على الكيان اللاتينى على أرض الشام زمن السلطان الظاهر بيبرس ، والسلطان المنصور قلاوون ، والسلطان الأشرف خليل .. على التوالى . ويبدو أن يوشع براور يتجاهل طبيعة تكوين جيوش ذلك الزمان فى كل أنحاء الدنيا . فقد كان الفرسان المحترفون عماد تلك الجيوش ، ولم يكن مهما أن يكونوا من أبناء البلاد نفسها ، وانما ينبغى أن يكونوا من المسلمين أبناء دار الاسلام . وهو أمر كان يحدث فى الامبراطورية البيزنطية وفى الغرب الأوربى الكاثوليكى أيضا . ولكن ذلك لا يعنى أن المصريين لم يشاركوا فى الحرب ، فالقبائل العربية فى مصر جزء من كل هو الشعب المصرى ، كما أن قسما هاما من أقسام الجيش المصرى فى عصر سلاطين المماليك كان يتألف من المصريين (٤٠) . فاذا أضفنا الى ذلك ما يتردد كثيرا فى ثنايا مصادر تاريخ ذلك العصر عن خروج المجاهدين والغزاة من المصريين فى البحر لقتال الفرنج ، ومهاجمة شواطئهم ، واعتراض

---

(٤٠) انظر : قاسم عبده قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى — عصر سلاطين المماليك (دار المعارف ١٩٧٩ م) ، ص ١٩ — ٢٠ ، وكذلك :

E. Ashtor, A Social and Economic History of the Near East in The Middle Ages (Collins, London 1976), pp. 282 — 84.

سفنهم ، وما يتواتر كثيرا فى هذه المصادر نفسها عن أن « المطوعة » أى المتطوعين فى الجيوش المصرية فى المعارك الكبرى مثل عين جالوت كانوا أكثر من الجنود النظاميين ، فان خطأ يوشع براور (وهو خطأ مقصود) يبدو فادحا ٠

وعلى الرغم من أن هذا الموقف الاسرائيلى من المصريين يكشف نفسه بنفسه ، فاننا ينبغى أن نذكر المؤرخ الاسرائيلى بمنجزات المقاتل المصرى ضد الكيان الصهيونى فى حرب الاستنزاف ، ثم فى معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ م ٠ وعليه أيضا أن يتذكر أن هذا المقاتل قد تفوق على المقاتل الاسرائيلى الذى يحتمى خلف جدار من أكثر الأسلحة الأمريكية تطورا ٠

المهم أن يوشع براور يواصل حديثه فى هذا الفصل عن التطورات التى لحقت بالجيوش الصليبية من جراء الاحتكاك بالجيوش الاسلامية ابان المواجهة الطويلة بين الطرفين والتى امتدت الى حوالى مائتى سنة فوق الأرض العربية ٠

الفصل التاسع والأخير فى كتاب عالم الصليبيين يتحدث عن موضوع هام وحيوى ، وعنوانه « مغامرة التجارة والعالم المتنامى » The Adventure of commerce and the Expanding Universe ويتناول هذا الفصل التجارة العالمية ، ومدى مساهمة المستوطنين الصليبيين فى سائر وجوه هذا النشاط التجارى العالمى ٠ ويبدأ حديثه عن الموانىء الصليبية ، والرحلة البحرية من موانىء ايطاليا حتى بلاد الشام ، وهى رحلة كانت تستغرق ثلاثة أسابيع ٠ ثم يحدثنا عن الحركة فى الميناء ، والجمارك ، ومحاولات التهريب ، ثم الفنادق والخانات والوكالات المعدة لاستقبال التجار من شتى أنحاء الدنيا ، والتى كان يتم بناؤها بالقرب من الميناء قدر الامكان ، ويبين كيف أن حى الميناء فى المدينة كان هو « الحى الأحمر » حيث تروج مهنة الدعارة ٠ ثم يتحدث عن الكوميونات

الإيطالية التى كانت بمثابة مدن داخل المدن الصليبية ٠٠ ويصف لنا الأسواق وأماكن الصيارفة فى تفصيل ممتع يعطينا صورة نابضة عن الحياة الاقتصادية الداخلية ٠

ولكن أهم ما فى هذا الفصل هو ما يقرره يوشع براور من أن فترة الحروب الصليبية كانت هى الأداة التى خلقت الظروف النفسية والمادية التى أدت الى الانطلاقة الأولى نحو استكشاف الأوربيين للعالم قبل ثلاثمائة سنة من عصر الكشوف الكبرى ٠ وهو يكشف أن الأسواق الكبرى فى حوض البحر المتوسط كانت هى الهدف المنشود للتجار الأوربيين فى بداية عصر الحروب الصليبية ٠ وعلى مدى قرن كامل تخلصت أوربا من حجاب الغموض الذى كان يفصلها عن آسيا منذ القرن السادس وما حدث أثناءه من اجتياح الجرمان لبلدان الغرب الأوربى ٠ ولكن سقوط الكيان الصليبى فى أخريات القرن الثالث عشر جعل آسيا تبتعد عن أوربا مرة أخرى ٠ وظل الحال كذلك حتى القرن السادس عشر حين طرقها الايطاليون والاسبان والبرتغاليون من جديد ٠ ويختتم حديثه عن التجارة بأن الحروب الصليبية وجرأة الايطاليين ومهارتهم ، بالاضافة الى الغزو المغولى ، كانت عوامل ثلاثة مختلفة تفاعلت سويا لتخلق مجموعة المراكز التجارية التى أرست أسس الاتصالات الأوربية / الآسيوية ، والتى خرجت منها الحركة الاستعمارية فيما بعد ٠

ولكن ما لم يذكره براور هو أن هذه الآفاق التجارية الجديدة هى التى جعلت مصالح الظهير الأوربى تختلف عن مصالح الكيان الصليبى الذى لم يكن يشارك فى النشاط التجارى العالمى الا من خلال أبناء الكوميونات الايطالية التجارية التى كانت بمثابة دول مستقلة داخل الدولة الصليبية ، كما كانت لها علاقة عضوية تربطها بالجمهوريات التجارية الايطالية التى كانت مصالحها التجارية الذاتية أقوى كثيرا من اغراء الايديولوجية الصليبية ؛

وهو ما يفسر لنا سر العلاقات الوطيدة بين الايطاليين وسلطنة المماليك فى مصر والشام فى أخريات العصور الوسطى ٠

أما خاتمة الكتاب ، فهى ترصد ضمور الايديولوجية الصليبية والعوامل التي أدت الي ذلك ٠ فالحقائق السياسية والاقتصادية والاجتماعية الجديدة التى فرضت نفسها على الحياة في غرب أوربا في ذلك الحين صرفت الأوربيين عن المساندة الحقيقية للكيان الصليبي ٠ كما أن أوساط المثقفين فى الغرب الأوربي ، والتى كانت قد بدأت تعارض الفكرة الصليبية منذ فشلت الحملة الثانية ، واكتسبت مزيدا من المؤيدين الذين كانت أعدادهم تتكاثر فى أعقاب كل حملة صليبية جديدة ٠ هذه الموجات المتوالية من النقد والمعارضة للحركة الصليبية آتت ثمارها فى نهاية الأمر بحيث صارت الحماسة الصليبية فى أوربا شكلا فارغا دونما مضمون حقيقى ٠

ومع مرور الزمن كان لابد من تعديل أهداف الايديولوجية الصليبية ؛ وتمت صياغة أهداف جديدة خرجت بالحركة عن مسارها الأصلى ، ومن ثم كان لابد من تعيين وسائل جديدة للعمل ٠ هذا التغيير الرئيسى حدث مع غروب شمس القرن الرابع عشر ، وبعد منتصف القرن الخامس عشر ارتبطت الفكرة الصليبية بحركة الكشوف الجغرافية ٠ فقد كان الهدف هو تحقيق الاتصال المباشر بالهند وجزر التوابل بحيث تستقل أوربا عن مصر تجاريا ، وفى الوقت نفسه يتم تقويض موارد مصر الاقتصادية الرئيسية المتمثلة فى دخلها من الضرائب المفروضة على التجارة الدولية التى كان طريقها الآسيوى / الافريقى ينتهى فى دلتا النيل ٠ لقد ظلت الفكرة الصليبية الرومانسية القديمة كامنة فى غياهب الوجدان والعقل الأوربى ؛ فقد كتب كريستوفر كولومبوس فى كراسة الحسابات الخاصة بسفينته : « أقترح على جلالتكم أن يستخدم كل الربح الذى سوف أحصل عليه من مشروعى لاسترداد بيت المقدس » ٠

ملاحظات ختامية

هذا هو مضمون كتاب عالم الصليبيين للاستاذ الاسرائيلي المعاصر يوشع براور ، والذي اعتبرناه « رؤية اسرائيلية للحروب الصليبية » • وقد لا تكون هذه هى الرؤية الاسرائيلية الوحيدة وقد يكون هناك من المؤرخين الاسرائيليين من يختلف مع براور في بعض تفاصيل هذه الرؤية ؛ ولكن حافزنا على اختيار هذا الكتاب محورا لدراستنا هذه ينبع من خلال الحقيقة القائلة بأن موقف المؤلف يتسق مع الموقف اليهودى العام من الحروب الصليبية من جهة ، وأنه يعد نموذجا واضحا لأحد أساليب الحركة الدعائية الصهيونية التى تركز على استخدام الأدب والتاريخ لخدمة الأهداف الصهيونية من جهة أخرى •

فموقف يوشع براور من حوادث اضطهاد يهود أوربا على أيدى الصليبيين يتخذ نفس الخط الصهيونى العام لفكرة أمة الشهداء ، ومعاناة الشعب المنفى فى الشتات على الدوام ، بالشكل الذى يجعل من الحركة الصهيونية وانشاء الدولة اليهودية فى فلسطين حتمية تاريخية • كما أنه يروج لفكرة معاداة السامية كتيار قديم ضد اليهود ، وهى فكرة يروج لها الصهاينة لكى يبتزوا بها ضمير العالم الغربى • وثانيا ، نجد يوشع براور لا يترك فرصة واحدة دون أن يحاول اختلاق دور تاريخى لليهود في خضم أحداث الحركة الصليبية ، وابراز أى دور لليهود مهما يكن تافها ؛ وهى محاولة تتناغم مع الموقف اليهودى العام فى محاولة سرقة التاريخ العربى عامة ، وفى هذه الفترة التاريخية على نحو خاص • وثالثا ، أن يوشع براور يركز على دراسة الكيان الصليبى في مصطلحات اسرائيلية ، بمعنى أنه يقوم ببعض الاسقاطات المعاصرة على مفهوم الأمن والحدود الطبيعية ، وعلى مشكلة الموارد البشرية والهجرة ، وعلاقة الكيان الصليبى بالظهير

الأوربى المساند له ، وعلى علاقة الكيان الصليبى ذى الطبيعة العسكرية بجماهير العرب المعادية ٠٠ وغير ذلك من الأمور التى تكشف عن أنه يدرس الوجود الصليبى فى الشرق بعين وعقل المستوطن الاسرائيلى الذى يعيش فوق نفس الأرض التى شهدت أحداث الصراع ضد الصليبيين منذ تسعة قرون ، ويشهد الآن تطورات الاحتلال الاستيطانى الصهيونى الذى بدأ منذ النصف الأول فى هذا القرن ٠

والمؤلف الاسرائيلى يستخدم كتابه ، الذى يتوجه به الى عامة المثقفين المتحدثين باللغة الانجليزية لزرع بعض المقولات الخاطئة ضد العرب ٠

على أن ما يسترعى انتباهنا فى هذا الموضوع أن هناك عدة جوانب أساسية للشبه بين الكيان الصليبى والكيان الصهيونى أفرزت عدة مشكلات متشابهة أيضا ٠ فمع تسليمنا بوجود الكثير من وجوه الخلافات الناتجة عن تغير الظروف التاريخية الموضوعية ، وحركة العلاقات الدولية ، ومفاهيم علاقات القوى ٠٠ وما الى ذلك ، فاننا نرى أن المكونات الأساسية لكل من الكيان الصليبى والكيان الصهيونى على الأرض العربية متشابهة ، ومتماثلة فى بعض الأحوال ٠ لقد ارتبطت كل من الحركة الصليبية والحركة الصهيونية بفكرة الخلاص والأرض الموعودة على نحو ما ، كما كانت كل منهما افرازا لحقائق الحياة السياسية / الاجتماعية والاقتصادية فى مجتمع بعيد عن المنطقة ٠ وتم زرع المملكة اللاتينية والدولة اليهودية بالقوة المسلحة وعلى حساب المهاجرين العرب الذين حل محلهم مهاجرون من خارج المنطقة ٠ وكانت حال الضعف والتفكك فى العالم العربى أكبر عوامل نجاح كل من الصليبيين والاسرائيليين ٠ كما ظل الكيان الصليبى يستمد العون من الظهير الأوربى وها هو الكيان الصهيونى يعيش بفضل العون والدعم من ظهيره الأوربى / الأمريكى ٠

ومن ناحية أخرى ، فان المشكلات الأساسية للصليبيين والاسرائيليين كانت واحدة أو متشابهة على الأقل : فالغربة الحضارية كانت سمة هامة من سمات المستوطنات الصليبية وهي أيضا من خصائص المجتمع الاسرائيلي الغريب عن المنطقة العربية . حقيقة أن الاسرائيليين يحاولون نفي هذه الغربة الحضارية ، فيسرقون التاريخ العربي ، وينتحلون التراث الشعبي العربي ويدعون ملكية الفنون الشعبية العربية بكافة أنماطها ، ويباهون الدنيا بالصناعات الشعبية والمأكولات والحلوى العربية التي يدعون ملكيتها ، وينقلون الآثار من المناطق المحتلة الى متاحفهم .. ولكن هذا كله لا يمكن أن يخفف من وضوح غربتهم الحضارية عن المنطقة .

كذلك فان مشكلة الموارد البشرية والهجرة التي كانت من أهم عوامل الفشل والاخفاق في تاريخ الوجود الصليبي في المنطقة ، ما تزال من أشد هموم الكيان الاسرائيلي وطأة ، وعلى الرغم من نجاح الحركة الصهيونية في رفع عدد السكان الى ما يتراوح بين ثلاثة ونصف مليون وأربعة ملايين نسمة في اسرائيل ؛ فان نسبتهم العددية الى دول المواجهة تبدو ضئيلة بالفعل . ومع أن اسرائيل تحاول باستمرار جذب المزيد من المهاجرين من ناحية ، وتحاول تعويض النقص الكمي بالتفوق الكيفي فان الزمن لا يبدو أنه سيكون في صالح الاسرائيليين في هذه المسالة ؛ فقد أخذت الدول العربية بأسباب التقدم مما يمكن أن يقضي على أوهام التفوق الكيفي الاسرائيلي . على أية حال فان مشكلة الموارد البشرية والهجرة في اسرائيل ما تزال من أهم عوامل الضعف مثلما كانت عاملا سلبيا في الوجود الصليبي منذ عدة قرون .

لقد وجد الكيان الاسرائيلي وسط محيط بشري معاد ، ولقد اثبتت الحروب المتوالية أن اعتماد الاسرائيليين على القوة

العسكرية ، وعلى مفاهيم الأمن والحدود الطبيعية ، التي تتشابه مع مفاهيم الصليبيين بدرجة تجعلنا نعتقد أنها مستوحاة منها : لا يمكن أن يكفل البقاء لاسرائيل فى هذه المنطقة • لقد حقق الصليبيون فى الماضى عدة انتصارات على المسلمين ، ولكن كل انتصار كان يحرزه المسلمون على الصليبيين كان يعنى خطوة فى طريق الموت للكيان الصليبى • وقد استطاعت اسرائيل بمساندة غربية أن تحرز عددا من الانتصارات على العرب : ولكن هزيمتها فى حرب أكتوبر جعلت ظهيرها الأمريكى / الاوربى يسارع الى حرمان العرب من جنى ثمار انتصارهم ، وبسبب الفشل السياسى والقصور الذى انتج تفتت العالم العربى تحولت ثمار النصر الى ثمار اسرائيلية • ان هزيمة كاملة للكيان الاسرائيلى فيها نهايته ، ولكن العالم العربى يمكنه أن يستوعب أكثر من هزيمة حتى يمكنه تسخير موارده وامكانياته لمقاومة العدوان •••

يقودنا هذا الى مشكلة الظهير ، فقد اثبتت حرب أكتوبر أن اسرائيل لا يمكنها العيش دون المساندة الامريكية الاوربية •• واذا كان البعض يقول بأننا لا يمكن أن نحارب الولايات المتحدة من خلال اسرائيل ، فان الوجه الآخر من هذه العملة أن اسرائيل لا يمكن أن تحارب العرب دون مساندة هذا الظهير • ومن ناحية اخرى ، تكشف أحوال الاقتصاد الاسرائيلى عن أن اسرائيل لا يمكنها العيش اعتمادا على مواردها الذاتية الفقيرة ؛ فهى تعتمد على الغرب من أجل امدادها بالسلاح للمقاتلين ، ومن أجل امدادها بالمال ايضا • ولكن المتغيرات فى علاقات القوى الدولية ، والتى جعلت اسرائيل تغير حلفاءها وفقا لقوتهم فى مجال التوازن الدولى ، تجعلنا نتساءل عما اذا كان بوسع الاسرائيليين أن يعولوا كثيرا على الظهير المساند من خارج المنطقة • لقد اثبتت أحداث الحروب الصليبية أن حركة المجتمع يمكن أن تخلق تنافرا فى المصالح بين الظهير الأوربى والكيان اللاتينى فى

الشرق ، كما أثبتت أن بروز بعض القوى الاجتماعية الجديدة في أوربا آنذاك جعل الأوربيين ينصرفون إلى مشاكلهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية عن الصليبيين ومشاكلهم في الشرق .

إن اسرائيل تحاول أن تحل مثل هذه المشكلات بالحرص على الفرقة والتشرذم الذي يميز القوى العربية في المنطقة من ناحية ، ومن خلال محاولة فرض التخلف وإجهاض كل محاولات التنمية والتقدم من ناحية أخرى ، بحيث يتمكن الاسرائيليون من زعامة المنطقة اقتصاديا ، وجعل الدول العربية مجرد توابع وأسواق تخدم الاقتصاد الاسرائيلي .

هذه بعض الملاحظات الختامية التي لا أزعم لنفسي القدرة على تحليلها ، فهذه مهمة أتركها للزملاء المتخصصين في تاريخ الحركة الصهيونية والعلاقات العربية الاسرائيلية .

المحتـــويات

رقم الايداع ٨٣/٥٤٢٤

الترقيم الدولى ٣ ـ ١٥ ـ ١٣٥٠ ـ ٩٧٧

جروب معين التاريخ لأهل التأريخ

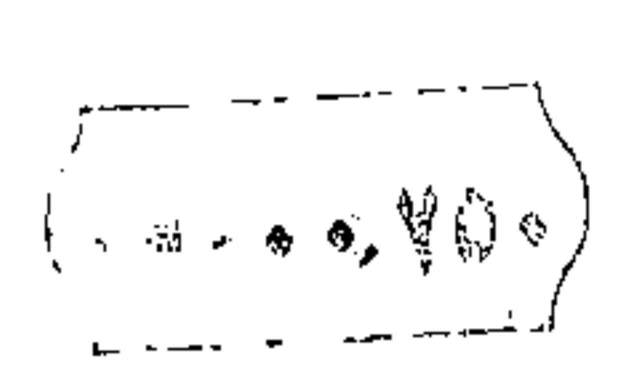
هـــذا الكتـــاب

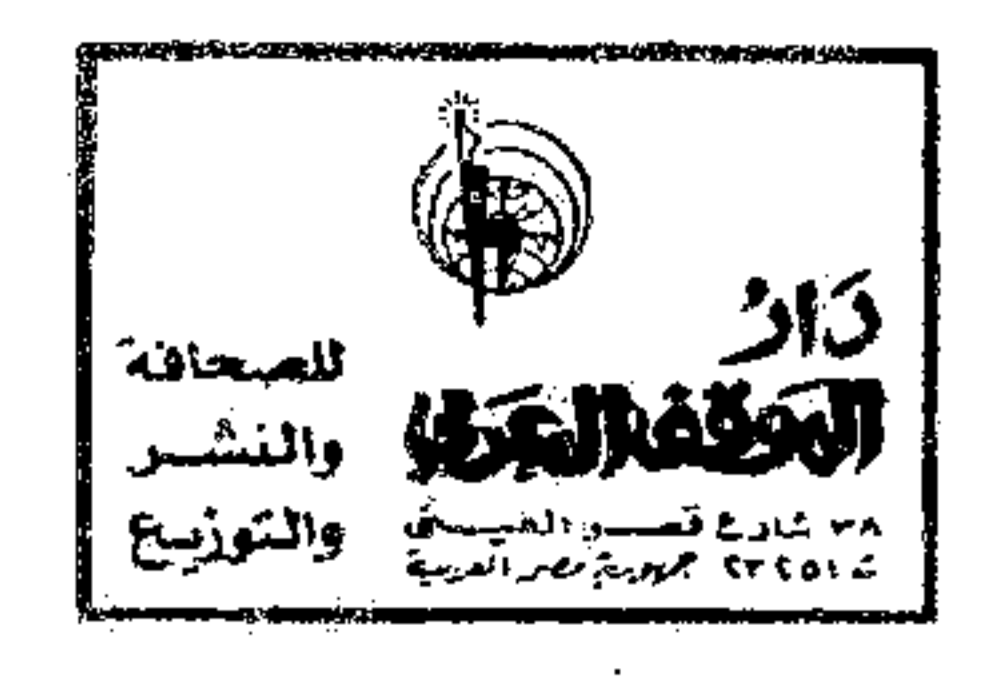
للتاريخ وظيفة حضارية ؛ لأنه العلم الذى يلهث وراء الانسان من عصر الى آخر محاولا أن يفهم الانسان وأن يفهمه حقيقة وجوده من خلال بحث ماضيه · وقد مضى ذلك الزمـان الذى كان فيه التاريخ حلية ثقافية تزدان بها الرؤوس الفارغة أو أحاديث سمر نتداولها فى المجالس والنوادى · فالحاضـــر هو الابن الشرعى للماضى · ومن يحاول أن يفهم مشكلات الحاضر دون البحث عن جذورها فى الماضى انما يحرث فى البحر ·

والحركة الصهيونية قد فهمت الدعاية على أنها حقيقة وعتاق حضـارى ، مما ترتب عليه أن اهتـم مخططو الدعاية الصهيونية بالنواحى الأدبيـة والتاريخية · فالأدب هو الوسيلة التى تخلق الشحنة العاطفية · والفن من أهم قنوات صياغة المواقف والوجدان من خلال الاعجاب بالجوانب الجمالية · كذلك فان التاريخ لغة قوية لا تنحصر فى محاولة بث الاعجاب ومداعبة مشاعر الزهو القومى ، وانما هو أيضا مخزن للتجارب الانسانية التى يمكن أن تنير الحاضر وتهدى الى سبيل المستقبل · فكتابة التاريخ هى نقطة التقاء بين الماضى والحاضر ، وبما أن الحاضر يتغير على الدوام ، فان نقطة الالتقاء هذه فى حركة مستمرة ، ومن خلال هذه النقطة ، أى كتابة التاريخ ، يستطيع المؤرخ أن يتسلل الى العقل الفردى والجماعى بتقديم النماذج التاريخية والمواقف التى تخدم أهدافه ·

والدراسة التى نقدمها فى هذه الصفحات يمكن أن تكشف عن نمـوذج تطبيقى لاستخدام الحركة الصهيونية للتاريخ والنمـاذج التاريخية لتحقيق اهدافها ·

« دار الموقف العربى »





هــذا الكتــاب

للتاريخ وظيفة حضارية : لأنه العلم الذى يلهث وراء الانسان من عصر الى آخر محاولا أن يفهم الانسان وأن يفهمه حقيقة وجوده من خلال بحث ماضيه · وقد مضى ذلك الزمـان الذى كان فيه التاريخ حلية ثقافية تزدان بها الرؤوس الفارغة أو أحاديث سـمر نتداولها فى المجالس والنوادى · فالحاضـر هو الابن الشرعى للماضى · ومن يحاول أن يفهم مشكلات الحاضر دون البحث عن جذورها فى الماضى انما يحرث فى البحر ·

والحركة الصهيونية قد فهمت الدعاية على أنها حقيقة وعناق حضـارى ، مما ترتب عليه أن اهتـم مخططو الدعاية الصهيونية بالنواحى الأدبيـة والتاريخية · فالأدب هو الوسـيلة التى تخلق الشحنة العاطفية · والفن من أهم قنوات صياغة المواقف والوجدان من خلال الاعجاب بالجوانب الجمالية · كذلك فان التاريخ لغة قوية لا تنحصر فى محاولة بث الاعجاب ومداعبة مشاعر الزهو القومى ، وانما هو أيضا مخزن للتجارب الانسانية التى يمكن أن تنير الحاضر وتهدى الى سبيل المستقبل · فكتابة التاريخ هى نقطة التقاء بين الماضى والحاضر ، وبما أن الحاضر يتغير على الدوام ، فان نقطة الالتقاء هذه فى حركة مستمرة ، ومن خلال هذه النقطة ، أى كتابة التاريخ ، يستطيع المؤرخ أن يتسلل الى العقل الفردى والجماعى بتقديم النماذج التاريخية والمواقف التى تخدم أهدافه ·

والدراسة التى نقدمها فى هذه الصفحات يمكن أن تكشف عن نمـوذج تطبيقى لاسـتخدام الحركة الصهيونية للتاريخ والنمـاذج التاريخية لتحقيق اهدافها ·

« دار الموقف العربى »

